العدد 7 - شعبان - 1441 هـ / نيسان 2020 م

مقاربات

مجلة فصليّة

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري
SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

أمن الإنسان في ضوء القرآن

كيف يحتل الإيرانيون مدينة حلب

بديع الزمان سعيد النورسي عالما ومفكرا وقائدا

التغلب مفسدة – تسقط به العدالة ولا تصح به الولاية

الأحزاب في إدلب

مُقاربات

تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

أسـرة التـحـريـر

رئيـس التـحـرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

مـديـر التـحـرير: الدكتور حسـن أحـمـد الخـطـاف

مستشار علمي: الدكتور مـحـمـد أيمـن الـجـمـال

الـمـحـرر: الأسـتـاذ مـحـمـد عـلـي النـجـار

مسجد خالد بن الوليد - ويضم ضريح الصحابي خالد بن الوليد يعود لـ 1913 م - حمص

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

البريد الإلكتروني للمجلة: jou@sy-sic.com

محتويات العدد

- نحو منهجية راشدة في الحوار – رئيس التحرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر ٢
- التغلب مفسدة تسقط به العدالة ولا تصح به الولاية – أ. د. حسن الخطاف ٧
- أمن الإنسان في ضوء القرآن – د. محمد محمود كالو ١٨
- الأخذ بالعزائم منهج القدوات – د محمد تركي كتوع ٢٨
- بديع الزمان سعيد النورسي عالما ومفكرا وقائدا – د. حسين عبد الهادي آل بكر ٣٧
- الإسلام السياسي النشأة والهدف – د. عامر بو سلامة ٥٣
- فقه الأولويات في المجتمعات المسلمة – د. محمد نور حمدان ٥٨
- تاريخنا بين الاعتبار والتوظيف – د. حذيفة عكاش ٦٢
- الدفاع عن الحقوق واحترام التخصص في حديث البقرة – الشيخ عبد العظيم عرنوس ٦٥
- كيف يحتل الإيرانيون مدينة حلب؟ – محمد علي النجار ٦٨
- الأحزاب في إدلب – د. عبد الجواد حردان ٧٦

كلمة رئيس التحرير

نحو منهجية راشدة في الحوار

د. حسين عبد الهادي آل بكر

من أبرز ما تعانيه أمتنا اليوم قضية الاختلاف الذي ينتهي إلى الفرقة والعَداء، وكل ذلك من منطلق الإسلام، فطغى الوجهُ السلبي للاختلاف على واقع المسلمين بدلًا من أن يكون سبيلًا للتنوع ومصدرًا للائتلاف والتكامل والتنافس المعرفي والحركي؛ فإن الاختلاف مشروع من حيث الأصل لأنه يؤدي إلى التوسعة على الأمة في شؤون الحياة، ولو حُمِلت الأمة على رأي واحد لَلحِق بها الحرج والشدة.

إن إدراكَ المفاهيم ومعرفة الأحكام مما تتفاوت فيه العقول البشرية، وهو أمر طبيعي، ورفعه متعذر، قال الله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود ١١٨/ ١١٩] فالاختلاف بين الناس أمر ضروري لا مناصَ منه، وإنَّما المذموم بغي بعضهم على بعض، يقول الشاطبي رحمه الله: (إن الله حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالًا للظنون، وقد ثبت عند النُّظَّار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات)[١]. تكلم أهل العلم نظريًّا عن قواعد الائتلاف وإدارة الاختلاف وفق مفهوم الأمة الواحدة والأخوة الإيمانية العامة، لكن هل تلاقت الممارسات مع التنظير؟ الحقيقة أن أكبر التحديات التي تواجه هذه القضية هو كيفية ترشيد الاختلاف، وذلك بنشر ثقافة رشيدة تقوم على قواعد منهجية وآداب علمية وضوابط أخلاقية.

جعل الله سبحانه وتعالى الاختلاف سنةً من سنن هذه الحياة الدنيا ومن طبيعة أهلها، ومع أن الاختلاف سنة ربانية إلا أن الناس يضيقون به ذرعًا، ويتساءلون: إلى متى سيظل هذا الخلاف بين العلماء؟! وإلى متى سيستمر هذا الاختلاف بين المسلمين، فلماذا لا يتفقون؟!

والجواب أن الخلاف باقٍ إلى يوم القيامة؛ فقد وقع الاختلاف بين الصحابة وبين العلماء في المسائل الفقهية والعلمية التي لم يكن فيها نص قاطع في الشريعة، فإذا وقع هذا في خير الأمة فكيف بغيرهم![٢] ولكن الله وضع للمؤمنين قاعدة تأسيسية محكمة بقوله سبحانه:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}[الحجرات ١٠]؛ لهذا لا بد أن يكون الاختلاف وسيلة للتواصل والتكامل والأخوة والائتلاف لا سبيلًا للهمز واللمز والاعتساف.

(١) الشاطبي: الاعتصام ٢/ ٦٧٤، تح: سليم الهلالي، دار عفان ١٩٩٢م.
(٢) سليمان العودة: فقه الاختلاف ((ولا يزالون مختلفين))، ص ١٢.

الإيمان وتوحيد الكلمة:

إن أهم أساسين في البناء الحضاري الإسلامي هما: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة؛ ففي كلمة التوحيد تتوجه النفوس نحو خالقها ليهيئ لها برنامج حياتها، وفي توحيد الكلمة يتسق التكامل الديني والدنيوي والتآزر العلمي والعملي وإنشاء مؤسسات النهضة والتعبئة الثقافية العامة لإحراز النصر في المجالات المختلفة[٣].

وقد جمع القرآن الأمرين في قوله سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

إن كل ما في الإسلام والتجارب السابقة يدلان بوضوح على أننا نحتاج إلى شرطين أساسيين ليتحقق لنا الاحترام والاعتبار بين الأمم؛ أولهما: تفعيل تفاعل القوة المعنوية من خلال التمسك بالعقيدة والأخلاق والقيم السامية، وتفعيل قواعد القوة المادية وهي القوة العلمية والقوة الاقتصادية والقوة العسكرية.

والآخر: تفعيل الأمة الواحدة، وهذه الوَحدة لا تتحقق دون حقوق وواجبات وجهود وتضحيات[٤]، وإن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى إلى النصيحة والشفقة وإن تباعدت الأجناس والأماكن[٥].

قواعد الاختلاف:

ثمة سؤالٌ يطرح نفسه دائمًا: لماذا تزداد دول العالم اجتماعًا بينما تزداد هذه الأمة تفرقًا؟ والجواب أنَّ السببَ في ذلك غيابُ ضوابطِ الاختلاف وقواعدِه التي أسَّسها الإسلام للمجتمع المسلم، ومن أهمها:

- تحريم غيبة المسلم أو احتقاره وخذلانه أيًّا كان انتماؤه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَن خاصمَ في باطلٍ وهو يعلَمُ لم يزَلْ في سخَطِ الله حتَّى ينزِعَ، ومَن قال في مؤمنٍ ما ليس فيهِ حُبِسَ في ردغةِ الخَبالِ حتَّى يأتيَ بالمخرَجِ مِمَّا قالَ [٦].

- العمل على الإصلاح بين المسلمين إذ هو من أعظم الأعمال الصالحة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين [٧].

- عند وجود توجهات مختلفة في مسألة محتملة تتفاوت فيها المدارك وتتجاذبها الأدلة فإن لزوم الجماعة حقيقة قاطعة تقدم على ما قد يثيره الاختلاف الطبيعي بين المسلمين.

- الاختلاف سُنَّة كونية وآية من آيات الله في أصل المخلوقات والرزق والتفكير والسلوك والخلق والآراء والأفهام، (فلو شاء سبحانه لخلق العقول البشرية على إلهام متحد لا تعدوه كما خلق إدراك الحيوانات العُجمِ على نظام لا تتخطاه)[٨].

---

(٣) عبد السلام مقبل المجيدي: فقه الاختلاف صراط الأخوة، ص ٨-٩.
(٤) علي محيي الدين القره داغي: نحن والآخر دراسة فقهية تأصيلية، ص ١٦.
(٥) تفسير النسفي، ٤/ ٦٧.
(٦) أبو داود ٣/ ٣٠٥، ابن ماجه، ٢/ ١١٢٠، مسند أحمد، ٢/ ٨٢.
(٧) أبو داود ٤/ ٢٨٠، والترمذي ٤/ ٦٦٣، وقال: هذا حديث صحيح.
(٨) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١١/ ٣٤٩.

- تعدد الصواب في الاختلاف المحمود قاعدة من قواعد الإسلام، وهذا النوع من الخلاف يُقعِّد لنا النبي صلى الله عليه وسلم قاعدتَه مصرِّحًا بصواب الفعلين حينما اختلف ابن مسعود وآخر في القراءة فقال لهما: ((كلاكما محسن، لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا))[٩] ويدخل في قاعدة تعدد الصواب حديث الصلاة في بني قريظة، قال ابن كثير: (وقد اختلف العلماء في المصيب يومئذ من هو، بل الإجماع على أن كلًّا من الفريقين مأجور ومعذور)[١٠].

إنَّ تعدد الصواب يجعل الاختلاف تكاملًا، فلماذا تحل محلَّه الجفوة بين التيارات المختلفة وكلُّ أعمالها تكاملية، ولِمَ يكيد بعضهم لبعضٍ؟

ويمكن القول: إن اختلاف وسائل العمل الإسلامي يدخل في اختلاف التنوع، فمن المسلمين من ينهض للجهاد، ومنهم من ينهض لإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنهم من ينهض لنفع الناس وقضاء حوائجهم، ومنهم من ينهض لإحياء منارات العلوم، وكل ذلك خير وبركة.

ولعل من أبرز أعراض تحوُّل الاختلاف الإيجابي إلى تنازع ينذر بإخفاقٍ حضاري وحياتي عام هو الجدلُ المؤدي إلى المراءِ والتعصب والهوى وادعاء الحقيقة المطلقة والقطيعة والتدابر والتباعد والتهاجر، ولو أنه كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لن يبقى بين المسلمين آصِرة ولا أخوة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم))[١١].

إن القبولَ بظاهرة التعددية في الرأي خصوصًا في قضايا السياسة الشرعية، وتربيةَ الناس على عدم تقديسِ آراء الرجال وتقديمِها على قواعد الشرع: منهجيةٌ إسلامية راشدة، وإن التمرُّنَ على الموضوعية في النقد لَيجعل المسلم متزنًا يناقش القول لا القائل؛ فلا يميل إلى الانتقام الشخصي ولا إلى تحقير الآخر وتسفيهه.

المسلمون جسد واحد:

بيَّن الله أن المشركين يواجهون المسلمين كتلةً واحدة وملةً واحدة، فعلى أهل الإيمان أن يواجهوهم صفًّا واحدًا بولاءٍ واحد؛ فالوحدة بين المسلمين فريضة شرعية من أهم الفرائض، وضرورة عقلية وواقعية، لكن لا بد لتحقيقها من تحقيق قاعدة الأخوة الإيمانية، وهي ليست محضَ شعارٍ يرفع أو خطبة تقال بل لا بد أن تكون واقعًا مجسَّدًا تترتب عليه الآثار الآتية جسد واحد ويد واحدة، والتواضع بل خفض الجناح المتبادل؛ لهذا لم يشأ رب العالمين أَنْ يصف وحدة المسلمين أجمعين بالصفوف بل وصفهم بالصف الواحد فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤].

إن مردَّ معظم المشكلات التي نشهدها اليوم إلى عدم الاعتراف بالآخَر عند الاختلاف، وإن هذا لَيُؤَدِّي بنا إلى التنابذ والافتراق ثم القتال والشقاق بينما كان ينبغي أن يعترف بعضنا ببعض من خلال الإيمان بالتعددية المشروعة.

لقد كانت حضارتنا الإسلامية في أوج ازدهارها ساحة رحبة للتعدد الفكري، استوعبت الاختلاف الفقهي والمدارس المتنوعة دون حرج؛ فعلينا أن نقبل ما نشهده اليوم في مجال التعددية السياسية والفكرية في ظل الثوابت، وأن نُقِرَّ الاجتهادات المخالفة في المتغيرات، ويشمل نطاق المتغيرات ما هو خارج عن الأصول والثوابت القطعية، وأكثره يظهر في المعاملات الاقتصادية والمالية والقضايا السياسية والطبية أو

(٩) صحيح البخاري، ٢/ ٨٤٩.
(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١١٨، الشاطبي: الموافقات ٣/ ١٤٥.
(١١) صحيح مسلم، ٤/ ٢١٦٦.

العلاقات الدولية ونحوها، ولما كانت الثوابت محل اتفاق بين المسلمين فإن اختلافهم إذا كان نابعًا من الاجتهاد المنضبط فهو اختلافهم تنوع لا اختلاف تضاد، وقد أشار الشاطبي -رحمه الله- إلى أن الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والتباغض مردودٌ في الإسلام؛ إذ التباغض الناشئ عنه دالٌ على كون الاختلافِ نابعًا عن هوى لا عن طلبِ الحق[١٢].

وكما أن المسلمين في عصرٍ واحدٍ أمةٌ واحدة فإنهم جميعًا منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم حتى عصرنا أمة واحدة، ولا يمكن تفريقها بتقسيمها إلى متقدمين ومتأخرين أو سلف وخلف؛ فإن مردَّ خيرية السلف القرب من ينبوع النبوة وتربية الرسول صلى الله عليه وسلم والصفاء والنقاء، والسلف ليس مذهبًا معينًا ولا حَكْرًا على فئة معينة، فأَوْلى الناس بالسلف هم أهل المذاهب والآراء المعتمدة في ضوء الكتاب والسنة[١٣].

من الخلاف إلى التفاهم:

نتحدث جميعًا عن أخلاقيات الاختلاف، ونحاول وضع نظريات جميلة نظريًّا، لكنْ قليلٌ منا هم الذين يستطيعون أن يطبقوا هذه النظريات ليحولوها إلى واقع في سلوكهم العملي وفي علاقاتهم مع الآخرين حينما يختلفون معهم، وكأننا نلتمس من الآخرين أن يلتزموا بأخلاقيات الخلاف حينما يختلفون معنا، لكنَّنا لا نلتمس من أنفسنا الالتزام بهذه الأخلاقيات حينما نختلف معهم؛ فنحن بحاجة إلى تدريس أدب الاختلاف في مدارسنا وجامعاتنا وجوامعنا مع تدريب الناس على ممارسته عمليًّا ليتحول إلى عادة وعبادة في الوقت ذاته[١٤].

في عصرِنا عصر الانفتاح تحطمت الحواجز والحدود، وأصبحت الكرة الأرضية قرية صغيرة في عالَمِ الفضاء والإنترنت، فلا ينفع أسلوب المنع والحظر والتشويش الذي رأيناه في عصر الأنظمة الاستبدادية، ولم يعد مجديًا تسفيه الآخرين بل لا بد من الاستماع إليهم ومقارعة الفكر بالفكر، وقد كشفت منتديات الحوار على الشبكة العنكبوتية خللًا كبيرًا في آلية الحوار، وتجاهلَ كثيرين لدائرة المتفق عليه بين المسلمين، فنشاهد في الحوار الإلكتروني مستوى خطيرًا من انتهاك نظام الاحترام الإسلامي وكأن كلَّ طرفٍ يقول: إن لم تكن معي فأنت ضدي؛ فتتحول ساحات النقاش تلك إلى مسرح فضائح واتهامات وافتراءات، وقد تتحول إلى نوع من السب والشتم بدلا من المجادلة بالتي هي أحسن، فكأن القوة في بعض كتاباتنا أو خطبنا وبرامجنا الإعلامية هي الصراخ والإقصاء واحتكار الحق على طريقة فرعون حينما قال:{ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٩]، فيدور الشخص حول رأيه ووجهة نظره وكأنه يقول: رأيي صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ لا يحتمل الصواب.

إن النقاش البيزنطي العقيم بين المسلمين يجعل الآخرين يقولون: اتفقوا أولًا على الدين الذي تقدمونه لنا ثم تعالَوْا لدعوتنا، وحلوا مشكلاتكم قبل أن تفكروا بحل مشكلات العالم، يقول سلمان العودة: سمعت مرة من يتكلم بمسألة قصارى ما يقال فيها أَنَّها اجتهادية، فسمعته يقول: أنا لا أتكلم من قبل نفسي، أنا لا أقول برأيي، وإنما هذا منهج الله وهذا حكم الله. سبحان الله! وهل الآخرون يأخذون من التوراة والإنجيل؟![١٥] يقول ابن القيم -رحمه الله- في مثل هذه المسائل: لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ولم يظفر فيه بنصٍّ عن الله ورسوله: إن الله حرَّم كذا وأوجب كذا، وإن هذا حكم الله[١٦].

(١٢) الموافقات، ٢/ ٥٧٦.
(١٣) نحن والآخر، ص ٤٢.
(١٤) فقه الاختلاف، ص٣٩.
(١٥) المصدر السابق، ص٥٣.
(١٦) ابن القيم: إعلام الموقعين ١/ ٤٤.

والعجيب أن كثيرًا من الناس قد يتَّقُون أكل الحرام ومشاهدة الصور الخليعة لكن يصعب عليهم كف الألسن عن الاستطالة في الأعراض، فتجد الواحد منهم يَفري أعراض الأحياء والأموات فريًا، فلماذا لا ننطلق من قاعدةِ الشيخ رشيد رضا الشهيرة قاعدةِ المنار التي دعا إليها الشيخ حسن البنا في رسائله: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه وكأني ببعضهم اليوم يقول: نتدابرُ فيما اتفقنا عليه، ويهشم بعضنا رأس بعض فيما اختلفنا فيه!

إنَّ الأمة الإسلامية اليوم هي أحوج ما تكون إلى البحث عن المشتركات فيما بينها -وهي كثيرة جدًّا- لمواجهة التحديات فما أحوجنا اليوم إلى التوحد والتعاون وتوزيع الأدوار وقبول بعضنا بعضًا، والاجتماع على ما يجمعنا من الثوابت والمواقف السياسية وعدم إثارة الاختلافات.

لا بد لأمتنا أن تجتمع على مشروع استراتيجي واضح المعالم والخطوط من خلال علمائها وحكامها لمواجهة تحديات المشروعات الغازية، لكنَّ الحرية شرطٌ؛ فهي المكان الذي تزهر فيه الأفكار الصحيحة، فأمتنا بأمس الحاجة إليها، وإذا كنَّا جميعًا مُقرِّين بأن أوضاعنا بحاجةٍ إلى تصحيح فإنَّ أصل خطوات التصحيح هو النقد العلمي الحر الهادف البناء لا نقد التشفي وكشف عورات الآخرين، أما الاستبداد فلم يكن يومًا ليوحِّدَ الناس على مشروع استراتيجي؛ فإن العقلية الفردية المتوترة المتوجسة الناشئة في جو الاستبداد يصعب أن تمارس النقد البناء.

وليس أسوأ ولا أكثر جناية على الحقيقة من الخصومات والمحاكمات التي لا تدع للموضوعية والتعقل موضعًا، وتحوِّل المتحاورين إلى متبارزين في حلبة مصارعة، فيجعل الفرد نفسه فوق الآخرين، وينقدهم من برجه العالي، ويصم الآخرين بالبلادة.

علينا أن نفرق بين اختلاف مجتهدين مبنيٍّ على حجة صحيحة ونظر صحيحٍ وتجردٍ من الهوى واختلاف ناجم عن غرضٍ شخصي أو شهرة أو عصبية أو نحوها، فالأول محمود والثاني مذموم، ثم إنه ما ينبغي أن تنساق الظنون والأوهام في رصد المنتمين لجماعة أو حركة وتفسير تصرفات كلٍّ منهم سلبيًّا لمجرد انتمائهم إلى اتجاه فكري أو حركي معين.

إن الحوار وسيلة صحيحة للوصول إلى حقيقة المختلفِ فيه، لكنَّ الحوار المعلن كثيرًا ما يحمل على العنادِ وعدم تأمل كلام المخالف إلا للرد لا لمعرفة موافقته للصواب أو معارضته له؛ فكثير من الحوارات المعلنة لا تنتهي بقبول أحد الطرفين للقول الآخر، بل ربما تنتهي إلى الجفاء والقطيعة والملاكمة والمضاربة بالكراسي كما في الاتجاه المعاكس وبرامج عدة مشابهة؛ فلتكن الحوارات بين الأقران سرًّا إلا إذا كانت ثَمَّة مصلحة ظاهرة.

وفي الختام أقول: لا ينتصر هذا الدين إلا بالجماعة، ولا تقوى الجماعة إلا بالوحدة، ولا تتحقق الوحدة إلا بوعي أفراد الجماعة، ولا وعي للأفراد إلا بالتربية؛ التربية التي تعمق في نفوس أفراد الجماعة ضرورة الحفاظ على وحدة الأمة، وإن النصوص المؤكدة على وجوب الاجتماع والمحافظة على الجماعة كثيرة، فالمحافظة عليها فريضة لا يجوز الإخلال بها لترك مستحب أو واجب فردي، قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: ١٥٩].

التغلُّب مفسدة

تسقطُ به العدالة ولا تُصحَّح به الولاية

أ. د. حسن الخطاف

أستاذ الثقافة والمنطق في جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

كلمات مفتاحية: مفسدة، فسق، حاكم، تغلب، إمام، شهادة.

الأصل في نتيجة الدراسات أن تكون في الخاتمة، وإنما أدرجتها في العنوان لألفت نظر القارئ إليها، علمًا أنَّها لم تكن إلا بعد بحثٍ ودرْسٍ معمَّقٍ شامل.

أهميةُ البحث:

ضبطُ حكمِ المتغلب وآثاره، خاصَّةً أننا في أيامٍ كثُر فيها متغلبون لا يعدمون من يفتي لهم بأنَّهم يمثلون الحاكم الشرعي الذي ينبغي أنْ يُطاع، وكثير من حُكَّام الأمس واليوم متغلبون، فعائلة الأسد مثلًا متغلبة، والسيسي وخليفة حفتر كذلك.

حدود البحث:

تحديد مفسدة التغلُّب، ووجهُ بطلان ولاية المتغلب ولو استمرت، وتفصيلُ موقف الإمام الجويني من ذلك بتوسع اقتضاه المقام.

مصطلحات الدراسة

التغلُّب عرفًا: الحكم بالقوة الفعلية كالانقلابات العسكرية، أو بالقوة الحُكميَّة كأنْ ولَّاه أو ورَّثه الحكمَ متغلبٌ سابقٌ أو خلَفَه مِن غيرِ استشارةٍ مع وجود خوفٍ من معارضته وعدم الرضا به حتى ولو كان صالحًا لذلك، وهذا هو المعنى المقصود به هنا، أما لغةً فهو اسم فاعل من الخماسي (تغلَّب) والثلاثي منه (غَلَبَ)، ومادة غلب عند ابن فارس تدل على القهر والقوة والشدة، ومنه قوله تعالى{وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم: ٣][1] فالقوة شرط لازم للمتغلب.

التغلُّب في المصطلح الفقهي أخصُّ من التّغلُّب بالمعنى العرفي:

تبيَّن لي أنّ المتغلب إذا أُطلق في كتب الفقه فهو من زاحم غيره بالقوة مع اتِّصافه بالصفات المطلوبة في الحاكم من سلامة الأعضاء وغيرها، وأما إذا قُيِّد فيكون متغلبًا مقيَّدًا بأنه ليست فيه الصفات التي تؤهله، والدليل على هذا أن الجويني -وهو أوسع من تحدَّث عن ذلك- لم يذكر من حالات التغلُّب ما لو كان المتغلب لا يُؤتمن على دين وأخلاقٍ، وبعض كتب الفقه تصف المتغلب بكونه جامعًا لشروط الإمامة، يقول الشربيني: (وثالثها باستيلاء شخص -متغلبٍ على الإمامة جامعٍ الشروطَ المعتبرة في الإمامة- على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينتظم شمل المسلمين، أما الاستيلاء على الحي؛ فإن كان الحي متغلبًا انعقدت إمامة المتغلب عليه، وإن كان إمامًا ببيعة أو عهد لم تنعقد إمامة المتغلب عليه[2].

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ٤/ ٣٨٨.

(٢) مغني المحتاج: ٥/ ٤٢٣.

والمعنيُّ بثالثها ثالث طرق الوصول إلى الحكم، والملاحظ هنا تقييد المتغلب بكونه جامعًا لشروط الإمامة وبموت الإمام وليست غايتُه دنيويةً كما يفعل متغلبة اليوم، وهذا شيء ينبغي ملاحظته لضبط مقصد المتغلب، فحرصه هو حرصٌ على النفع العام لكن رغم هذا عُدَّ متغلِّبًا لكونه ليس هو الوحيد ولم يَجْرِ اختياره، فمن وصل للحكم بطريقة شرعية لا يُزاح بالمتغلب ولا تنعقد إمامة المتغلب، فينبغي استحضار هذا المعنى الذي سنؤكده.

-**المفسدة**: ما يلحق بالشيء من ضررٍ يفوق المصلحة، فالمفسدة والمصلحة كِفَّتَا ميزان لتصرفات الإنسان، وضابطهما هو الشرع عند أهل السنة، فما حسَّنه الشرع وحثَّ عليه فهو مصلحة وإلا فهو مفسدة.

-**الفاسق**: هذا وصف للحاكم المتغلب، والمقصود أن ما ارتكبه هو اغتصاب لحقِّ الأمة وهذا فسق، والفسق هو الخروج عن طاعة الله تعالى، يقول الماتريدي: والفسقُ هو الخروج عن أمر الله[٣] ويقول ابن الجوزي: والفسق: الخروج عن طاعة الله إلى معصيته[٤]، ويقول منلا خسرو: إذا أطلق في لسان الشرع يراد به الخروج عن طاعة الله[٥] ويقول الشوكاني: والفسق هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة الحد بالمعصية[٦] وهذه التعريفات عامة لم تُخَص بنوعٍ معيَّن، ومن المقطوع به أنَّ الكبيرة فسق قال في التعريفات الفقهية: الفِسق في اللغة عدمُ إطاعة أمر الله وفي الشرع: ارتكابُ المسلم كبيرةً قصدًا أو صغيرة مع الإصرار عليها بلا تأويل[٧].

-**لا تُصحَّح**: استخدمتُ تعبير لا تُصحح عوضًا عن لا تصح لئلا يُفهَم من ذلك أن التَّغلُّب بحدِّ ذاته يقتضي خروجًا على السلطان؛ فذاك أمر مرهونٌ بالمصالح والمفاسد التي يُقدِّرها أهلُ الخبرة والمعرفة، وثمّة مقصد آخر وهو أن صيغة تفعَّل تدل على الصيرورة والتحول، ومعنى ذلك أنَّ الاستمرار في الحكم لا يُصيِّره حكمًا صحيحًا كما لو انتخبه غيرُه، هذا مع ملاحظة أنَّ للوصول إلى الحكم طريقين لا ثالث لهما: الاختيار وتولية عهد ممن له أحقية بذلك، يقول الجويني رحمه الله: وثبوت الإمامة من غير تولية عهد من إمام أو صدور بيعة ممن هو من أهل العقد أو استحقاقٍ بحكم التفرد والتوحد بعيدٌ[٨].

وشروط الإمامة -ومنها الاختيار والتولية- منثورة في كتب الفقه وخاصة السياسة الشرعية، ومن هذه الشروط سلامة الحواس والصفات اللازمة كالإسلام والذكورة والحرية والعقل والبلوغ، ومنها صفات مكتسبة كالعلم والورع والنجدة[٩]، وما من كتابٍ في الفقه إلا وذكر العدالة على أنها شرط في الإمامة لا يُستغنَى عنه، والذي يعنينا من ذلك شرط العدالة لارتباطه بالتغلُّب.

الحاكم: التغلُّب إنما يصدر من حاكمٍ أي رئيس بالمصطلح المعاصر، وهو الذي يحكم جماعةً من الناس ضمن جغرافية مُحدَّدة صغيرة كانت أم كبيرة ما دام الناس قد رضوا به، فلا أرى فرقًا في الحكم هنا بين أن تكون الرئاسة بهذا المعنى الذي لا ذكر له في تراثنا الفقهي لأنه استُحدِث بعد تفكيك الخلافة الإسلامية وأن تكون رئاسة على جميع المسلمين أي إمامة عظمى أو ولاية عامة، ومعناها بتعبير الماوردي: خلافة النبوة

(٣) تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، تح: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ٤/ ٢٣٨.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي–بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، ١/ ٥١٢.

(٥)درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فرامرز بن علي الشهير بمنلا خسرو، دار إحياء الكتب العربية، ص٢٢١.

(٦)تفسير فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ٤/ ٨.

(٧)محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

(٨)غياث الأمم في التياث الظلم، عبد الملك الجويني أبو المعالي ركن الدين، تح: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ص٣٢٦.

(٩)انظر في هذه الشروط: الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، ص٨٢، الأحكام السلطانية للماوردي، دار الحديث، القاهرة، ص١٩، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ٥/ ٤٢٢، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، دار الكتاب الإسلامي، ٤/ ١٠٨، الأشباه والنظائر لابن نجيم، وضع حواشيه وخرج أحاديثه: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، ص٣٢٥.

في حراسة الدين وسياسة الدنيا[١٠] وعند الجويني: رياسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا[١١] وعند الإيجي: خلافة الرسول في إقامة الدين بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة[١٢] ويلاحظ في هذه التعاريف أنها مرتبطة بوحدة الأمة العامة عندما كان لها حاكم واحد وله ولايات تتبعه، أما بعد انهيار الخلافة فقد تمزَّقت الأمة وصارت دولا عدَّة.

ولا بدَّ من قيد نضعه هنا وهو أنّ الحاكم الذي يُراد إزاحته قد رضيه الناس لدينهم ودنياهم، وكان من حيث الجُملة يحكم بشرع الله تعالى، أما الحاكم الذي ثبت مكره بالأمة ودينها وقيمها فحكمه مناقضٌ للمقصود من حراسة الدين والدنيا فهذا ليس مقصودًا من البحث هنا؛ إذ المقصود بالتغلب السيطرة بالقوة ممن كان صالحًا للحكم من حيث الجُملة أو ممن وجد الأمة في حالةٍ من الفوضى وتغلَّب على الأمر، وكان مقصده الحفاظ على الأمة، والجويني إنما بحثَ المسألة من هذا الجانب، ولعل هذا ما يُفهم من أحوال المتغلِّب التي ذكرها الفقهاء ككونه امرأةً أو عبدًا، لكن لم أجد لهم توسعًا في هذه المسألة، وكأنَّ التغلب عندهم من حيث الشروط هو عدم الالتزام بالشروط المطلوبة للوصول إلى الحكم كاشتراطهم الحرية والذكورة، فإذا ما اختلَّ شرط وأخذ الإمامة عنوة فهو متغلبٌ من هذه الحيثية، يقول ابن عابدين: والمراد بالمتغلب من فُقدت فيه شروط الإمامة وإن رضيه القوم[١٣] أما الغاية – وهي حراسة الدين والدنيا– فهي متحققة فيه أو هي من مقاصده الدافعة للحكم على أقل تقدير، وهذه الغاية نجدها صريحة عند الخطيب الشربيني وهو يشرح كلام النووي بأن من أشكال تولي الحكم استيلاء شخص –متغلبٍ على الإمامة جامعٍ الشروطَ المعتبرة في الإمامة– على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينتظم شمل المسلمين[١٤] فينبغي التَّنبُّه لهذا،فالغاية كما صرَّحُوا بها هي المصلحة العامة بظنِّ المتغلب والأصل في المتغلب أنَّ الشروط متحققة فيه إلا شرط البيعة.

المبحث الأول:
الآثار الفقهية المترتبة على التغلُّب

١- التغلب فسق يمنع البيعة وقبول الشهادة

التغلب فسق، وإذا ثبت أنه فسق فلن تُقبل شهادته، وكونه حاكمًا بالقوة لا يُغيِّر من الأمر شيئًا، يقول الجويني: فإن الذي ينتهض لهذا الشأن لو بادره من غير بيعة وحاجة حافزة... أشعر ذلك باجترائه وغلوه في استيلائه...، وذلك يسِمه بابتغاء العلو في الأرض بالفساد، ولا يجوز عقد الإمامة لفاسق، وإن كانت ثورته لحاجة ثم زالت وحالت فاستمسك بعُدَّته محاولًا حمل أهل الحل والعقد على بيعته فهذا أيضا من المطاولة والمصاولة، وحمل أهل الاختيار على العقد له بحكم الاضطرار، وهذا ظلم وغشم يقتضي التفسيق، فإذا تصورت الحالة بهذه الصورة لم يجز أن يبايع، وإنما التصوير فيه إذا ثار لحاجة ثم تألبت عليه جموع لو أراد أن يتحول عنهم لم يستطع، وكان يجر محاولة ذلك عليه وعلى الناس فتنًا لا تطاق ومحنًا يضيق عن احتمالها النطاق، وفي استقراره الاتساق والانتظام ورفاهية أهل الإسلام...، والمختار أنه وإن وجب تقريره فلا يكون إمامًا ما لم تجر البيعة، والمسألة في هذا الذي ذكرناه مظنونة، والمقطوع به وجوب تقريره ويقول العز بن عبد السلام: قلنا إذا تكررت منه الصغيرة تكرُّرًا يُشعر بقلة مبالاته بدينه إشعارَ ارتكابِ الكبيرة بذلك رُدَّت شهادته وروايته بذلك ولا يكون الردُّ في ابتداء التَّغلُّب فقط بل يبقى المتغلِّبُ فاسقًا طيلة حكمه من هذه الحيثية؛ إذ من القواعد المقررة في الشرع أن الفسق وصف يلتحق بالشخص ولا يُزال هذا الوصف إلا بزوال سببه، فالكذب والغيبة فسق ولا يتحول صاحبهما إلى عدل ما دام مصرًا على ذلك، ومثل ذلك الحاكم المغتصب لحقِّ الآخرين، وظاهر في نص إمام الحرمين أنَّه إن كان تغلُّبه لحاجة عامة لا يُفسَّق إلا إذا زالت الحاجة فاستمسك بعُدَّته محاولًا حمل أهل الحل والعقد على بيعته رغم زوال الحاجة إلى التغلُّب.

(١٠)الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الحديث – القاهرة، ص١٥.
(١١)غياث الأمم في التياث الظلم، ص٢٢.
(١٢) المواقف، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، تح: عبد الرحمن عميرة، ٣/ ٥٧٤.
(١٣)الدر المختار وحاشية ابن عابدين، دار الفكر– بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ٢/ ١٣٩.
(١٤) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ٥/ ٤٢٣.

هـذا مـع ملاحظـة أن الفسـق إنـما هـو مـن هـذه الحيثيـة، ولا يلـزم مـن هـذا أنـه لـن يكـون لـه خـير أو ألّا يقبـل لـه عمـل فـذاك شـأن آخـر، فالحاكـم المتغلـب ظـالم فاسـقٌ، ولا تُقبـل شـهادة الفاسـق اتفاقًـا بـين العلـماء، ولم يقـع تخصيـص قبولهـا بحاكـمٍ أو قـاضٍ، يقـول العـز بـن عبـد السـلام: ولا تقبـل الشـهادة إلا مـن عـدل[١٥] وجـاء في شرح مختـصر خليـل: شـهادة الفاسـق مـردودة اتفاقًـا[١٦] وقـال الشـافعي: شـهادة العبـد أقـرب مـن شـهادة الفاسـق لأن ردَّ شـهادة الفاسـق بالنـص، قـال تعـالى: {إِنْ جَاءَكُـمْ فَاسِـقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا} وردُّ شـهادة الفاسـق متفـق عليـه[١٧]، وعنـد الحنبليـة شـهادة الفاسـق كعدمهـا[١٨] ولا يلـزم مـن ردِّ شـهادة الحاكـم لفسـقه عـدمُ نفـاذِ تصرفاتـه.

٢-التغلُّب كبيرة

نجـزم بـأن التغلـب كبـيرة مـن الكبائـر، ودليـل هـذا أنَّ فيـه ظلـمًا للآخريـن، وظلـم الآخريـن كبـيرة، وبيـان ذلـك أن فيـه ظلـمًا مـن طرفـين؛ فهـو أخـذ لحـقِّ مـن لـه أهليـة الحكـم وهـذا ظلـم، وهـو ظلـم لمـن لـه أهليـة تنصيـب الحاكـم سـواء أكانـوا هـم أهـل الحـلِّ والعقـد أم سـائر النـاس كـما هـو مشـاهد اليـوم، وقـد جـاء الظلـم بمعنيـين؛ الأول: التـصرف في حـق الغـير الـذي لا يملكـه المتـصرف، والثـاني: وضـع الـشيء في غـير موضعـه[١٩]، ومـؤدَّى المعنَيـين واحـدٌ، فـإنَّ مـن تـصرف في غـير ملكـه يضـع الـشيء في غـير موضعـه، ومـن يضـع الـشيء في غـير موضعـه فهـو ظـالم.

وقـد يُعـترض عـلى هـذا بأنـه لا دليـل مقطـوع بـه يؤكـد أنَّ التغلـب كبـيرة، والجـواب أنَّ الظلـم أيًّـا كان هـو مـن الكبائـر لأن فيـه أخـذًا لحـق الغـير، فمـن غصـب ١٠٠ مائـة لـيرة مـن آخـر بالقـوة عُـدّ ظالِمًـا تُـردُّ شـهادته، فكيـف مـن غصـب حـقَّ الأمـة في التَّرشـح وحقَّهـا في الترشـيح وأنـاب نفسـه منابهـا؟ وحتـى لـو أنـا سـلمنا جـدلًا بـأنَّ التغلُّـب صغـيرة فالاسـتمرار في الحكـم يجعـل منـه مـصرًّا عليهـا فتصبـح كبـيرة، يقـول العـز بـن عبـد السـلام: فـإن قيـل: قـد جعلتـم الإصرار عـلى الصغـيرة بمثابـة ارتـكاب الكبـيرة فـما حـد الإصرار أيثبـت بمرتـين أم بأكثـر مـن ذلـك؟ قلنـا إذا تكـررت منـه الصغـيرة تكـررا يُشـعر بقلـة مبالاتـه بدينـه إشـعارَ ارتـكابِ الكبـيرة بذلـك ردت شـهادته وروايتـه بذلـك[٢٠] فـالإصرار عـلى الصغـيرة يُلحقهـا بالكبـيرة، فلـو فرضنـا جـدلًا أن التغلـب مـن الصغائـر فالاسـتمرار عليـه يُلحقـه بالكبائـر.

ننبـه إلى مسـألة مهمـة ينبغـي أن لا تلتبـس علينا، وهـي أننـا إذا قررنا مفسـدة التغلـب وأن المتغلـب فاسـق مرتكـب للكبـيرة وأنَّ شـهادته تُـردُّ، فـلا يلـزم مـن هـذا البتـة عـدم نفـاذ تصرفاتـه، فتصرفاتـه تنفـذ لئـلا يقـع ضرر عـلى الأمـة، فعـدم الاشـتراط ليـس تزكيـة لـه بـل لتنفـذ تصرفاتـه، ونفـاذ تصرفاتـه ليـس دليـلًا عـلى عدالتـه، وإنـما لرفـع الحـرج عـن المحكومـين، يقـول العـز بـن عبـد السـلام أثنـاء حديثـه عمـن تُشـترط فيـه العدالـة: وأمـا الإمامـة العظمـى ففـي اشـتراط العدالـة فيهـا اختـلاف لغلبـة الفسـوق عـلى الـولاة ولـو شرطناهـا لتعطلـت التصرفـات الموافقـة للحـق في توليـة مـن يولونـه مـن القضـاة والـولاة والسـعاة وأمـراء الغـزوات، وأخـذ مـا يأخذونـه وبـذل مـا يعطونـه، وقبـض الصدقـات والأمـوال العامـة والخاصـة المندرجـة تحـت ولايتهـم؛ فلـم تشـترط العدالـة في تصرفاتهـم الموافقـة للحـق لِمـا في اشـتراطها مـن الـضرر العـام وفـوات هـذه المصالـح أقبـح مـن فـوات عدالـة السـلطان[٢١].

فنفـاذ تصرفاتـه شيء والعدالـة شيء آخـر، ومعنـى هـذا أنّ نفـاذ تصرفاتـه لا يزيـل الفسـق عنـه لأنّـه ارتكـب فعـلًا مُخـلًّا بالعدالـة كالتَّغلُّـب، وإذا كان فاسـقًا فـلا تقبـل شـهادته لاختـلال شرط العدالـة، يقـول ابـن رشـد: واختلفـوا فيـما هـي العدالـة، فقـال

(١٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/ ٧٨.

(١٦)منح الجليل شرح مختصر خليل، ٨/ ٣٤٨.

(١٧)نهاية المطلب في دراية المذهب، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، تح: عبد العظيم الدّيب، دار المنهاج، الطبعة الأولى،٢٠٠٧م، ١٩/ ٦٨.

(١٨) الكافي في فقه الإمام أحمد، ٤/ ٢٩٣.

(١٩) انظر في هذين المعنيين: الغزالي، قواعد العقائد، تح: موسى محمد علي، عالم الكتب– لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص٢٠٤، ٢٠٤. الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، ص١٠١. تفسير الطبري، محمد بن جرير، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م ١/ ٧٧، تفسير الطبري، ١/ ٥٢٣. تفسير الرازي ٢٥/ ٧٧، ويقول السيوطي: كتاب المظالم: جمع مظلمة، مصدر ظلمة، اسم لما أخذ بغير حق، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه الشرعي، والغصب: هو أخذ مال الغير بغير حق تح: رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد– الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ٤/ ١٧٠٢.

(٢٠)قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/ ٢٧.

(٢١) المصدر السابق، ١/ ٧٩.

الجمهور: هي صفة زائدة على الإسلام، وهو أن يكون ملتزمًا لواجبات الشرع ومستحباته مجتنبًا للمحرمات والمكروهات، وقال أبو حنيفة: يكفي في العدالة ظاهر الإسلام وأن لا تعلم منه جرحة، وسبب الخلاف كما قلنا ترددهم في مفهوم اسم العدالة المقابلة للفسق، وذلك أنهم اتفقوا على أن شهادة الفاسق لا تقبل لقوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦] ولم يختلفوا أن الفاسق تقبل شهادته إذا عرفت توبته إلا من كان فسقه من قِبَل القذف، فإن أبا حنيفة يقول: لا تقبل شهادته وإن تاب، والجمهور يقولون: تُقبل[٢٢]. نفهم من هذا النص أمورًا:

الأول: الاتفاق على عدم قبول شهادة الفاسق، الثاني: العدالة شيء زائد على الإسلام، الثالث: تُقبل الشهادة إنْ تاب. وخلاصة هذا أنّ المتغلب لا تُقبل شهادته إن لم يتب، وحتى على مذهب أبي حنيفة يكون المتغلِّب فاسقًا لأنه صدر منه أمرٌ جارح له.

٣- التَّغلُب مُخِلٌّ بأهلية الحاكم للإمامة

بيَّنا أن التغلب مفسدة وأنه فسق وكبيرة تُردُّ به شهادة الحاكم، لكن هل الحاكم المتغلبُّ يبقى أهلًا للإمامة؟

ذكرْنا أن لأهلية الإمامةِ شروطًا منها العدالة، وأن لصحته طريقين هما الاختيار أو تولية من له أحقية ذلك، وخلصنا إلى أن التغلب كبيرة وفسق يخل بشرط العدالة ابتداءً وانتهاءً فكل متغلب فاسق وإن استجمع صفات الإمامة وشروطها ومقصدَها، ولا يتصف بالعدالة إلا بارتفاع الفسق، ورفعُه رهنٌ بزوال التغلب الذي فسَّقه وسلبَه العدالة؛ فعلى هذا يكون التغلب مانعًا ابتداءً وانتهاءً من كون المتغلِّب أهلًا للإمامة لتلبُّسِه على الدوام بموانعِ أهليةِ الإمامة ولخروجِه عن طرق استحقاقها كما سأذكره مفصلًا نقلًا عن الإمام الجويني في حالات فسق الحاكم ابتداءً أو انتهاءً. يقول السرخسي في عدم قبول شهادة الفاسق: ولكنا نقول: الفسق لا يخرجه من أن يكون أهلًا للإمامة والسلطنة؛ فإن الأئمة بعد الخلفاء الراشدين -رضي الله تعالى عنهم- قلما يخلو واحد منهم عن فسق، فالقول بخروجه من أن يكون إمامًا بالفسق يؤدي إلى فساد عظيم[٢٣].

قد بدا أنَّ ثَمة شيئًا من عدم الانسجام بين العنوان وما نقلناه عن السرخسي رحمه الله، وفي الواقع لا تناقض بين الأمرين فالسرخسي يتحدث عن حالة أخرى هي حالة الخروج عليه لفسقه، وهذه المسألة لم نقصدها هنا؛ فعدم الأهلية شيء والخروج شيء آخر، فليس كلُّ ما يخلُّ بالأهلية يستلزم الخروج، ففقدان الحواس للحاكم يُخِلُّ بأهليته ولا يستلزم ذلك خروجًا.

٤- تصحيح ولاية المتغلِّب يخالف مقاصد الشارع وينسف شروط الإمامة

ما دام المتغلب ممارسًا للغلبة فهو فاسق، وسكوت الناس عنه لا يحولُّ حكمه إلى طريقة صحيحة، وحكم سكوتهم عليه كحكم آكل الميتة المضطر إليها، ولو افترضنا أنه بقي سنوات يأكل منها فلن يكون هذا الأكل من الطيبات، يقول حجة الإسلام الغزالي عند حديثه عن شروط الحاكم: فإن قيل: فإن تسامحتم بخصلة العلم لزمكم التسامح بخصلة العدالة وغير ذلك من الخصال، قلنا: ليست هذه مسامحة عن الاختيار ولكن الضرورات تبيح المحظورات، فنحن نعلم أن تناول الميتة محظور ولكن الموت أشد منه، فليت شعري من لا يساعد على هذا ويقضي ببطلان الإمامة في عصرنا لفوات شروطها -وهو عاجز عن الاستبدال بالمتصدي لها بل هو فاقد للمتصف بشروطها- فأيُّ أحواله أحسن؛ أن يقول: القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة في أقطار العالم غير نافذة، وإنما الخلق كلهم مقدِمون على الحرام؟ أو أن يقول: الإمامة منعقدة، والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار؟[٢٤].

(٢٢)بداية المجتهد ٦/ ٢١١.

(٢٣)المبسوط، السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة– بيروت، ١٩٩٣م، ٥/ ٣٢.

(٢٤) الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، تح: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت _ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص١٣٠. المجموع شرح المهذب، النووي، دار الفكر: ٤/ ٥٨٣.

والواضح الجليُّ من هذا أنَّ انعقاد الإمامة هو انعقاد لحظي بحسب الظروف، وهو أهون الشرور؛ لأن البديل أسوأ وهو القول بأنَّ إمامته ليست منعقدة أصلًا لما يترتب على ذلك من مفاسد، وهذ المعنى أكَّده العز بن عبد السلام بقوله: تصحيح ولاية الفاسق مفسدة لما يغلب عليه من الخيانة في الولاية، لكنها صححناها في حق الإمام الفاسق والحاكم الفاسق لما في إبطال ولايتهما من تفويت المصالح العامة، ونحن لا ننفذ من تصرفاتهم إلا ما ينفذ من تصرف الأئمة المقسطين والحكام العادلين، فلا نبطل تصرفه في المصالح لأجل تصرفه في المفاسد؛ إذ لا يترك الحق المقدور عليه لأجل الباطل، والذي أراه في ذلك أنا نصحح تصرفهم الموافق للحق -مع عدم ولايتهم- لضرورة الرعية كما نصحح تصرفات إمام البغاة مع عدم أمانته؛ لأن ما ثبت للضرورة يُقدر بقدرها والضرورةُ في خصوص تصرفاته، فلا نحكم بصحة الولاية فيما عدا ذلك بخلاف الإمام العادل فإن ولايته قائمة في كل ما هو مفوض إلى الأئمة[٢٥].

فمن قال بطاعته لا يقصد أنها طريق شرعي صحيح، فالطاعة لا تعني الصحة بل هي درءٌ لما هو أسوأ، وعلى هذا نفهم قول ابن بطال: والفقهاء مجمعون على أن طاعة المتغلب واجبة ما أقام على الجمعات والأعياد والجهاد وأنصف المظلوم في الأغلب، فإن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من تسكين الدهماء وحقن الدماء[٢٦] وكلمة خير هي صيغة تفضيل، والأمر مُعلَّل بإقامة الجمعات، وإقامة هذه الأشياء لا تعني الشرعية له كما أن عدم الشرعية لا يستلزم الخروج، فذاك منضبط بالمصالح والمفاسد.

وكثيرًا ما يجد الحاكم المتغلبُ أشخاصًا ضعاف النفوس يريدون الارتزاق منه، أو من يخاف سطوته، أو من يبالغ في الخوف من الفتنة، أو من لم يطلع اطِّلاعًا كافيًا على السياسة الشرعية وأبعادها وضرورة العدل في الحكم، فيسعى لجعل خلافة المتغلب خلافة شرعية، وهذا ينطبق على كثير من الصُّور، ومنها تنصيب بشار الأسد بعد أن نَفَقَ أبوه، فقد تراكض الناس للمباركة له والتبشير بعهده وكأنها خلافة شرعية، وكان على رأسهم بعض الشيوخ الذين كانت تُشدُّ إليهم الرحال.

ومن الملاحظ أنه يتم التعلل بالسكوت عن المتغلبة خوف الفتنة وانجرار الناس إلى التهارج والقتل، والذي ينبغي أن يُعلم ابتداء أن السكوت عن المتغلبة مخالفٌ لمقاصد الشرعِ في استقرار الأمة وإسنادِ الكفاءات لأصحابها والعيشِ في اطمئنان بعيدًا عن التقلبات والانقلابات، فالقول بالسكوت عن المتغلب هو عيش في تخوف وتوجس دائم، وهو سبب لعدم إطلاق طاقات الأمة ولتركِ الانشغال بمصالحها العامة خاصة الوقوف ضد الأعداء؛ فمن يساند ويساعد المتغلبة ويفتي لهم فهو ظالم لنفسه ولغيره، وقولهم بصحة التغلب يلغي شروط الإمامة كالإسلام والعقل والبلوغ...، والصفات المكتسبة كالعلم والورع والنجدة[٢٧]، والقول بصحة التغلب يجعل كلَّ من ليس أهلًا للإمامة متقدِّمًا إليها راغبًا فيها، بل تصبح حُلُم الفُجّار والعصاة لأنهم يرون فيها مكسبا لهم ولكل من كان معهم، وقد نصَّ الشافعية على عدم انعقاد بيعة المتغلب الذي يأتي خلف حاكم تمت له البيعة، يقول الخطيب الشربيني: أما الاستيلاء على الحي؛ فإن كان الحي متغلبًا انعقدت إمامة المتغلب عليه، وإن كان إمامًا ببيعة أو عهد لم تنعقد إمامة المتغلب عليه[٢٨].

٥- إزالة الحاكم الفاسق مرتبطة بالمصالح والمفاسد، والمُعتبر في ذلك غلبة الظَّن وليس اليقين

ذكر الجويني أنَّ بقاء الناس من غير والٍ هو خير من إقرارِ والٍ يكون عونًا للظالمين ونهبًا لخيرات المحكومين وبيعًا للبلاد ووبالًا على العباد، يقول الجويني: وترك الناس سدًى ملتطمين لا جامع لهم على الحق والباطل أجدى عليهم من تقريرهم على اتباع من هو عون الظالمين وملاذ الغاشمين وموئل الهاجمين[٢٩].

(٢٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/ ١٠٧.
(٢٦) شرح صحيح البخارى لابن بطال، تح: ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد- السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، ٢/ ٣٢٨.
(٢٧) الجويني، غياث الأمم، ص٨٢.
(٢٨) مغني المحتاج، ٥/ ٤٢٣.
(٢٩) غياث الأمم، ص١٠٦.

لكن كيف يُزال هذا الفاسق وما حكم إزالته؟

يرى الجويني أنَّ الحلَّ في مثل هذه الحال هو نصب إمامٍ آخر يختاره أهل الحلِّ والعقد، يقول الجويني: إن تيسر نصب إمام مستجمع للخصال المرضية والخلال المعتبرة في رعاية الرعية، تعيَّن البدار إلى اختياره، فإذا انعقدت له الإمامة واتسقت له الطاعة على الاستقامة فهو إذ ذاك يدرأ من كان...؛ فإن أذعن فذاك، وإن تأبَّى عامله معاملة الطغاة وقابله مقابلة البغاة... وإن علمنا أنه لا يتأتى نصب إمام دون اقتحام داهية وإراقة دماء ومصادمة أحوال جمَّة الأهوال وإهلاك أنفس ونزف أموال، فالوجه أن يُقاس ما الناس مدفوعون إليه مبتلون به بما يفرض وقوعه في محاولة دفعه، فإن كان الواقع الناجز أكثر مما يُقدَّر وقوعُه في روم الدفع، فيجب احتمال المتوقع له لدفع البلاء الناجز، وإن كان المرتقب المتطلع يزيد في ظاهر الظنون إلى ما الخلق مدفوعون إليه، فلا يسوغ التشاغل بالدفع، بل يتعين الاستمرار على الأمر الواقع، وقد يقدم الإمام مُهمًّا ويؤخِّر آخر[٣٠].

والملاحظ أنَّ حديث الجويني هنا وفي الفقرة السابقة أوسع من قضية المتغلب، ولعلنا نتوسع في ذلك في بحثٍ قادم، ويُعدّ كلامه مهمًّا في تحديد ضابط التخلُّص من الحاكم الفاسق وأساسه الإمكان وظاهر الظَّن؛ إذ اليقين في مثل هذه المسائل متعذرٌ، وأحكام الإمامة ظنية، فإن أمكن تنصيب إمام آخر عوضا عن هذا الفاسق فذاك وإن تعذَّر إلا بسفك دماء وبنزول المحن والبلاء فالأمر يُقاس بغلبة الظن؛ فإن كان المظنون هو إراقة دماء أكثر حتى يُزاح فيتعين البقاء على

الأمر الواقع وإلا فيتم التخلُّص منه، هذا مع ملاحظة أمرين؛ الأول: أن يُخلَع الحاكم الفاسق أولًا ثم ينصَّب الثاني، ويقوم الثاني بدفع الأول كما يُدفَع البغاة. الثاني: لا يُشترط الإجماع في الخلع والتنصيب، والمطلوب هو الشوكة عند الخلع والعقد فقط[٣١].

المبحث الثاني:

الفسق والتغلُّب عند الجويني

١-تقسيم الجويني لدرجات الفسق التي يرتكبها الحاكم ومدى تأثيرها على ولايته

ناقش الجويني هذه المسألة مبينًا أن طوائف من الأصوليين والفقهاء ذهبوا إلى أنَّ الفسق إذا تحقق أوجب انخلاع الإمام مثله مثل الجنون، وهؤلاء لا يفرقون بين فسقٍ في الابتداء وفسق في أثناء توليه للحكم، وعلة من قال بانخلاعه هو أن الحاكم أمين، والفاسق لا يؤتمن، وذكر الجويني رأيًا آخر لبعض العلماء، مفاده أن الفسق لا يتضمن الانخلاع بحدِّ ذاته، ولا بدَّ من أهل الحل والعقد لخلعه، ولم يرض الجويني هذه الأقوال لعسر استمرار الإنسان في ملازمة التقوى ليل نهار وخاصةً الحاكم مع اتِّساع دولته وكثرة مشاغله[٣٢].

وهذا يعني التفرقة بين أن يكون الفسق ابتداء وأن يكون أثناء ممارسته للحكم، فهو لا يقبله ابتداء يقول الجويني: فإن قيل: فلم منعتم عقد الإمامة لفاسق؟ قلنا: أهل العقد على تخيرهم في افتتاح العهد، ومن سوء الاختيار أن يعين لهذا الأمر العظيم والخطب الجسيم فاسق، وهم مأمورون بالنظر للمسلمين من أقصى الإمكان، وأما الذهاب إلى الانخلاع بعد الاستمرار والاستتباب مع التعرض للزلات فمُفسِد لقاعدة الولاية، ولا خفاء بذلك عند ذوي الدراية[٣٣].

والمعتبر في هذا الأمر عند الجويني هو الكبائر الظاهرة دون الصغائر، يقول الجويني: الهنات والصغائر محطوطة، وما يجري من الكبائر مجرى العثرة والفترة من غير استمرار عليها لا يوجب عندنا خلعًا ولا انخلاعًا...، ولو كان القائم بأمور المسلمين يتعاطى على الدوام ما هو من قبيل الكبائر كالشرب في أوانٍ ولكنه كان مثابرًا على رعاية المصالح، فالقول في ذلك لا يبلغ مبلغ القطع عندي، وقد يخطر للناظر أنه إذا لم

(٣٠) المصدر السابق، ص١٠٩.
(٣١) المرجع نفسه، ص١٢٦.
(٣٢) المرجع نفسه، ص١٠٢.
(٣٣) المرجع نفسه، ص١٠٥.

يتضمن ذلك خرمًا وفتقًا ولم يمنع الإمامُ ذا حقٍّ حقًّا ففرضُ الدوام فيه نازل منزلة كبيرة تندُر...، والأظهر عندي أن ذلك مؤثر فإن الكبيرة إذا كانت عثرة فإنها لم تَجُرّ خبالًا ولم تتضمن سوء الظنون...، فأما الفسق المؤثِّر فالقول فيه ينقسم؛ فإن كان يحتاج في إظهار خلله إلى اجتهاد فلا نقضي بأنه يتضمن الانخلاع بنفسه، بل الأمر فيه مفوض إلى نظر الناظرين واعتبار المعتبرين[٣٤].

من الواضح أنَّ الصغائر لا يمكن أن نجعلها مقياسًا لخلع الحاكم وكذا الكبائر النادرة، ومقياس النادر وغيره هو ظهوره منه، ولكن قد لا يظهر عليه شخصيًّا، فربما تراه مداوما على المناسبات الدينية كما كان النافق حافظ الأسد وما عليه ابنه، فلا ترى عليه شخصيًّا إدانة فهو يصلي الأعياد ويحضر المناسبات الدينية ويدعو العلماء إلى وجبة إفطار...، فكيف يتم الحكم عليه؟

نفهم من كلام الجويني السابق أنَّ مرجع الأمر إلى نظر واعتبار من بيدهم الحلُّ والعقد أو من عندهم خبرة في ذلك، فهم يقيسون ذلك، وما عليه هؤلاء من حرصٍ شديد بالابتعاد شخصيًّا عن المعاصي والاهتمام بالمناسبات الدينية... لا يكفي إذا كان الظلم سائدًا والرشوة فاشية والربا منتشرًا ودور البغاء ظاهرة والمال العام منهوبًا...، وهذا نفهمه من قول الجويني إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة ووضحت الخيانة، واستجرأ الظلمة ولم يجد المظلوم منتصفًا ممن ظلمه، وتداعَى الخَلل والخطل إلى عظائم الأمور وتعطيل الثغور، فلا بد من استدراك هذا الأمر المتفاقم...؛ وذلك أن الإمامة إنما تُعنَى لنقيض هذه الحالة، فإذا أفضى الأمر إلى خلاف ما تقتضيه الزعامة والإيالة فيجب استدراكه لا محالة، وترك الناس سدًى ملتطمين لا جامع لهم على الحق والباطل أجدى عليهم من تقريرهم على اتباع من هو عون الظالمين وملاذ الغاشمين وموئل الهاجمين ومعتصم المارقين الناجمين[٣٥].

هذه الحال التي تحدَّث عنها الجويني -رحمه الله- هي أحسن الأحوال في الكثير من مجتمعاتنا وخاصَّة في بلدنا سورية، وذكر أيضًا أننا إذا وجدنا حاكمًا مستوفيًا للشروط فإننا ننصبه، وحكم حكمًا عامًّا يُتَّخَذُ أساسًا في الحاكم، وهو أنه إذا لم يكن ذا كفاية، ولم يكن موثوقا به لفسقه، لم يجز نصبه، ولو نصب لم يكن لنصبه حكم أصلا[٣٦]، وهذا الحكم مهم ينبغي استحضاره في أذهاننا، وهو أنَّ الفاسق لا يجوز نصبه بحالٍ من الأحوال، وأنه لا يتحول مهما امتد الزمن به إلى حاكمٍ مستوفٍ شروط الحكم.

ويرى الماوردي أن الفسق المتعلق بأفعال الجوارح هُوَ ارْتِكَابُهُ لِلْمَحْظُورَاتِ وَإِقْدَامُهُ عَلَى الْمُنْكَرَاتِ تَحْكِيمًا لِلشَّهْوَةِ وَانْقِيَادًا لِلْهَوَى، فَهَذَا فِسْقٌ يَمْنَعُ مِنِ انْعِقَادِ الْإِمَامَةِ وَمِنِ اسْتِدَامَتِهَا، فَإِذَا طَرَأَ عَلَى مَنِ انْعَقَدَتْ إِمَامَتُهُ خَرَجَ مِنْهَا[٣٧].

٢-التغلُّب عند الجويني

أوسعُ من تناول المسألة الإمام الجويني في كتابه غياث الأمم في التياث الظلم، وقد فتح الله تعالى عليه في المسألة ضابطًا لكل الوجوه سالكًا في ذلك مسلك السبر والتقسيم، وقد نقلنا فيما سبق طَرَفًا من كلامه، وصدَّر الكتاب بكلامٍ رائع في الغاية من نصب الإمامة، قال: الإمامة رياسة تامة وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة ورعاية الرعية وإقامة الدعوة...، والانتصاف للمظلومين من الظالمين واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفاؤها على المستحقين[٣٨].

وإذا نصَّب نفسه بالقوة ودعا الناس إلى الخضوع له فنحن أمام ثلاث حالات في رأي الإمام الجويني:

الحالة الأولى: أن يسعى للحكم بالقوة وهو أهل له مع افتراض كونه وحيدًا مستكملًا الشروط اللازمة للإمامة، فهنا صورتانِ:

(٣٤) المرجع نفسه، ص١٢٠.
(٣٥) المرجع نفسه، ص١٠٩.
(٣٦) المرجع نفسه، ص٣١٦.
(٣٧) الأحكام السلطانية للماوردي، ص٤٢.
(٣٨) غياث الأمم، ص٢٢.

الصورة الأولى: أن يكون هو الوحيد المتصف بهذه الصفات دون غيره، وليس لدينا أهل حلٍّ وعقد، فإذا استظهر بالقوة وتصدى للإمامة، كان إمامًا حقًّا، وهو في حكم العاقد والمعقود له[٣٩]، والدليل على هذا عنده أن الافتقار إلى الإمام ظاهر والصالح للإمامة واحد، وقد خلا الدهر عن أهل الحل والعقد، فلا وجه لتعطيل الزمان عن والٍ يذب عن بيضة الإسلام، وهذا مقطوع به[٤٠]. وينبغي أن لا يغيب عنَّا أن الدافع الأساس لتصحيح هذا النوع هو الحرص على الإسلام وأن هذه المسألة نظرية محضة استدعاها منهج السبر والتقسيم.

الصورة الثانية: أن يكون هو الوحيد ولكنْ لدينا أهل حل وعقد، ولهذه المسألة وجهان:

الأول: أن يمتنع من هو من أهل العقد عن الاختيار والعقد للمتقدم الذي عنده الكفاءة مع كونه واحدًا، ففي هذه الحال يتعين إجابته واتباعه على حسب الاستطاعة بالسمع والطاعة ولا يسوغ الفتور عن موافقته في ساعة[٤١].

الثاني: ألا يمتنع مَن هو من أهل للاختيار والعقد عن اختيار المتقدم بالقوة مع كونه واحدًا، وفي هذه الحال يرى الجويني أنه لا بدَّ لأهل الحل والعقد من اختياره والعقد له على رأي، لكن ردَّه مبينًا أنه لا حاجة إلى إنشاء عقدٍ وتجريدِ اختيارٍ وقصد فالاختيار يكون حال التعدُّد ابتعادًا عن التنازع، والمسألة هنا في شخص واحدٍ متقدم للإمارة، فالتنازع لا يتُصوَّر فيها، علمًا أن الرجل الفرد -وإن استغنى عن الاختيار والعقد- لا بد من أن يستظهر بالقوة والمنعة ويدعو الجماعة إلى الطاعة، فإن فعل ذلك فهو الإمام على الجميع على أهل الوفاق والاتباع وعلى أهل الشقاق والامتناع[٤٢].

وإن لم يكن مُستظهرًا بعدة ونجدة فيجب على الناس اتباعه لتعينه لهذا المنصب، فإذا دعا الناس إلى الإذعان له فاستجابوا له طائعين فقد اتسقت الإمامة، واطردت الرياسة العامة فإن دعاهم ولم يطيعوا عصوا، وإن أطاعه قوم يصير مستظهرًا بهم على تثبت إمامته ويكون الموافق معه على المخالف، وإن لم يطعه أحد مع دعوته إلى ذلك أو اتبعه ضعفاء لا تقوم بهم شوكة وقوة فهذه الصورة تضطرب فيها مسالك الظنون...، فتعصي الخلائق لتقاعدهم عن نصب إمام يندفع به النزاع والدفاع والخصومات الشاجرة والفتن الثائرة، وتتسق به الأمور وتنتظم به المهمات والغزوات والثغور[٤٣] يُلحظ في هذا الحرص على الأمة، فالغاية من الإمامة عند الجويني وغيره هو حماية الأمة وجمع الكلمة، لكن هل يكون المتقدِّمُ إمامًا في هذه الصورة؟ يرى الجويني أنَّ جواب هذه المسألة ليس واحدًا، فيصح القول بأنه إمام وإن لم يُطع، وينفذ ما يمضيه من أحكامه على موافقة وضع الشرع...، ولا معنى لكون الإمام إمامًا إلا أن طاعته واجبة، وهذا الذي فيه الكلام بهذه الصفة، فهو إمام يجب اتباعه فتنفذ إذًا أحكامه، وهذا متجه عندي واضح والأول ليس بعيدًا أيضًا؛ فإن قاعدة الإمامة الاستظهار بالمنة والاستكثار بالعدة والقوة، وهذا مفقود في الذي لم يُطع[٤٤].

من البيِّنِ أنَّ الجويني يُرجِّحُ هنا أنه يكون رئيسًا ولو لم ينتخبه أحدٌ أو انتخبه ضعفاء لا تقوم بهم شوكة، واستبعد القول بأنه لا يكون رئيسًا لأن الثمرة المرجوة من الرئاسة لا تتحقق إلا بالاتباع ووجود شوكة له، ولا أرى ثمرة واضحة في كلا الصورتين إلا أنه في الصورة الأولى يقع الإثم على من لم يتبعه وينقَدْ له عند من يرى ضرورة اتباعه، وأما في الصورة الثانية فيرتفع الإثم عمن تبعه مع عدم استكمال الشوكة ويرتفع الإثم أيضا عمن قدَّم نفسه ولم يقع اختياره، وتقديمه لنفسه ضروري عند الجويني، فإذا آثر التقاعد والاستخلاء لعبادة الله -عز وجل- مع علمه بأنه لا يسد أحد مسده كان ذلك عندي من أكبر الكبائر وأعظم الجرائر، وإن ظن ظان أن انصرافه وانحرافه سلامة كان ما حسبه باطلًا قطعًا، والقيام بهذا الخطب العظيم إذا كان في الناس كُفاة في حكم فرض

(٣٩) المرجع نفسه، ص٣١٧.
(٤٠) المرجع نفسه، ص٣١٨.
(٤١) المرجع نفسه، ص٣١٨.
(٤٢) المرجع نفسه، ص٣٢١.
(٤٣) المرجع نفسه، ص٣٢١.
(٤٤) المرجع نفسه، ص٣٢٣.

الكفاية، فإذا استقل به واحد سقط الفرض عن الباقين، وإذا توحد من يصلح له صار القيام به فرض عين[٤٥] فإذا آثر التقاعد ولم يقدِّم نفسه فهو مع إثمه لم يكن إمامًا باتفاق العلماء أجمعين[٤٦].

الحالة الثانية: أن يكون من يصلح للإمامة أكثر من واحد ويستولي واحد منهم بالقوة استبدادًا بالأمر من غير اختيار وعقد، فيرى الجويني أنَّ هذا النوع يعسر تصويره، وجوابه بحسب الصور؛ فإنْ كان الناس من غير إمام ولم يتقدم أحد حتى طالت الفترة وتمادت العسرة، وانتشرت أطراف المملكة، وظهرت دواعي الخلل، فتقدم صالح للإمامة داعيًا إلى نفسه محاولًا ضم النشر وردَّ ما ظهر من دواعي الغرر، فإذا استظهر بالعدة التامة من وصفناه فظهور هذا لا يحمل على الفسوق والعصيان والمروق، فإذا جرى ذلك وكان يُجرُّ صرفُه ونصبُ غيرِه فتنًا وأمورا محذورة، فالوجه أن يوافق ويلقَى إليه السَّلَم وتصفِّق له أيدي العاقدين[٤٧] ومن المهم أن ننتبه هنا إلى القيود التي وضعها الجويني: عدم تقدم أحد وطول الفترة، واتساع الملك، وظهور دواعي الخلل بسبب عدم وجود حاكم، ففي هذه الحالة لا يوصف تقدمه بالفسوق مع ملاحظة أهليته لذلك وتوفر شروط الإمامة.

وثمَّة مسألة في غاية الأهمية وهي: هل تثبت رئاسته بمجرد تقدمه أم لا بدَّ مع هذا من الموافقة والاختيار من غيره؟ ينقل الجويني عن بعض أئمته من غير ذكر أسمائهم أنه إذا عسرت مدافعته وكان أهلًا للإمامة فيتعين تقريره، ولا معنى للاختيار لأن الاختيار يكون له أثر إذا تعين أكثر من واحد، ولم يكن أحدهما أولى من الآخر، ولم يتأت الجمع بينهما، فالاستظهار بالقوة مع تعذر المعارضة والمناقضة يتضمن ثبوت الإمامة[٤٨]. ولا يرضى الجويني بهذا المسلك ويضع له قيودا كثيرة، وإليك نصَّه كلَّه لأهميته، يقول: والمرضيُّ عندنا المسلك الأول فيجب العقد له لما فيه من تقرير غرض الإمامة وإقامة حقوقها وتسكين الفتنة الثائرة...، فإن الذي ينتهض لهذا الشأن لو بادره من غير بيعة وحاجة حافزة وضرورة مستفزة، أشعر ذلك باجترائه وغلوه في استيلائه وتشوفه إلى استعلائه، وذلك يسِمه بابتغاء العلو في الأرض بالفساد، ولا يجوز عقد الإمامة لفاسق؛ وإن كانت ثورته لحاجة ثم زالت وحالت، فاستمسك بعدته محاولًا حمل أهل الحل والعقد على بيعته، فهذا أيضا من المطاولة والمصاولة، وحمل أهل الاختيار على العقد له بحكم الاضطرار، وهذا ظلم وغشم يقتضي التفسيق، فإذا تصورت الحالة بهذه الصورة لم يجز أن يبايع، وإنما التصوير فيه إذا ثار لحاجة ثم تألبت عليه جموع لو أراد أن يتحول عنهم لم يستطع وكان يجر محاولة ذلك عليه وعلى الناس فتنًا لا تطاق ومحنا يضيق عن احتمالها النطاق، وفي استقراره الاتساق والانتظام ورفاهية أهل الإسلام...، والمختار أنه -وإن وجب تقريره فلا يكون إمامًا ما لم تَجْرِ البيعة، والمسألة في هذا الذي ذكرناه مظنونة، والمقطوع به وجوب تقريره[٤٩] يمدنا هذا النص القيم بدلالات عدة وقد سبق شيء منه:

١- ضرورة العقد لمن وُجدت فيه مؤهلات الحاكم الذي يريد السلطة بالقوة عندما يكون مؤهلا ولايتقدم أحدٌ غيره والأصل الذي تنبي عليه ضرورة الاستجابة له حماية الأمة ومصالحها.

٢- الدافع الذي يدفع الحاكم إلى التَّجرؤ والتغلب هو الحرص على الأمة مع عدم تقدُّم غيره وليس الحرص على المصالح الشخصية، فإن لم يكن مؤهلًا لذلك أو علمنا أنَّ الحفاظ على الأمة ليس من أولوياته فلا استجابة له.

٣- على من يتقدم لهذا الشأن أنْ يطلب البيعةَ لنفسه؛ فلا يكون رئيسًا بتقدُّمه للحكم مع سكوته وعدم طلبه للبيعة، ففي عدم طلبه مع تمسكه بالحكم استخفاف بغيره وتعالٍ عليهم، وذلك نوع من الفساد في الأرض .

(٤٥) المرجع نفسه، ص٣٢٤.
(٤٦) المرجع نفسه، ص٣٢٤.
(٤٧) المرجع نفسه، ص٣٢٥.
(٤٨) المرجع نفسه، ص٣٢٦.
(٤٩) المرجع نفسه، ص٣٢٧.

٤- الدافع الأصلي لتغلُّب الضرورة الحفاظ على مصلحة الأمة، وهذه ضرورة فإذا ارتفعت فليس له حمل الناس ممن بيدهم الحل والعقد على اختياره بالقوة فإنه ظلم وفسق، فإذا كانت الحالة كذلك لا يجوز أن يُبايَع .

٥- إذا استولى على الأمر بالقوة نظرا لحاجة الأمة إليه وتجمَّع الناس حوله ولم يستطع ترك الأمر لما يثيره ذلك من فتنٍ يضيق عن احتمالها النطاق، وفي استقراره الاتساق والانتظام ورفاهية أهل الإسلام، وجب على الأمةِ تقريره على الرئاسة نظرًا للحاجة، لكنَّه لا يكون إمامًا بطريق صحيح مالم تكن هناك بيعة له، فالمبايعة أمرٌ ضروري للتمييز بين حالة الضرورة وحالة الاختيار، وبالاختيار يكون الطريق إلى الرئاسة اختيارًا ولا يكون اضطرارًا، ولكلٍّ منهما آثار فقهية مترتبة عليها.

الحالة الثالثة: الاستيلاء على الحكم ممن عنده كفاية ونجدة لكن لم يستوفِ صفات الحاكم، فهنا ينقسم الحال عنده قسمين: إما أن يكون هناك من يجمع صفات الإمامة أو لا يكون؛ فإن لم يكن وخلا الزمان من مستجمع لشرائط الإمامة، فإنْ نصَّب أهل الحل والعقد شخصًا كان التنصيب كافيًا وقام مقام من له السمع والطاعة لشغور الزمان عمن توجد فيه هذه الصفات، وترك الناس من غير ذلك يوقع الناس في فوضى، وإنْ لم يُنصِّبه أهل الحل والعقد وقام بالاستيلاء على الحكم بنفسه واستظهر بعدته، وقام بالذب عن بيضة الإسلام وحوزته مع تحقق صفات الإمامة فيه، فالأمر فيه كالحالة الثانية وتفريعاتها[٥٠]، فإن لم يكن متحققا بصفات الإمامة وكان المتغلب مع ذلك متصفًا بالكفاية والشهامة فإنه يتعين تنصيبه، وتفصيل تعينه كتفصيل تعين من يصلح للإمامة كما تقدم حرفًا حرفًا[٥١]. والذي ينبغي ملاحظته أنَّ الجويني لم يناقش شخصًا تقدَّم للإمامة أو استولى عليها وهو في الأصل ليس أهلًا ولا يملك نجدة وشهادة، والسبب في هذا أنه لا يصلح إمامًا ولا يجوز تنصيبه، وهذا هو حال كثيرين ممن يقومون بالانقلاب اليوم، بل إنَّ كيد بعضهم ومكرهم وبيعهم للأوطان وسرقتهم للأموال العامة ونشر الرذيلة واستطالتهم على الناس وقتلهم لهم وإراقتهم لدمائهم وكرامتهم وصلت إلى حالٍ لا تخطر في بالٍ، وهذا بعض ما كان عليه حافظ الأسد المقبور وما عليه ابنه المعتوه الذي دمَّر البلاد والعباد وجعلها مرتعا لمنتهكي الأعراض ومغتصبي الأموال وسفَّاكي الدِّماء.

خاتمة

اتَّضح مما سبق أنّ التغلبَ فسقٌ وكبيرة تُسقط عدالة المتغلب، وأنَّ القول بولايته ليس تصحيحًا لولايته، بل لمصلحة أخرى رتبها الفقهاء على ذلك متمثلة بصحة التصرفات التي تنفذ منه، وهذا لاعلاقة له بصحة ولايته، فالسكوت عليه والاستمرار معه ليس حالة طبيعية، وخير ما يُعبَّر به عن ذلك أنها حالة اضطرار مثل أكل لحم الميتة والخنزير، فالآكل لو استمر على ذلك سنوات يبقى هذا الفعل في إطار الاضطرار. وتبين أن تصحيح ولاية المتغلب فيه نقض لمقاصد الشرع، وأن التغلب ليس مسلكًا من المسالك التي تُعتمد للاستيلاء على الحكم، وأنَّ مقصد المتغلب الأصلي كان حمايةَ الأمة من الضياع والتشتُّت لا المصالح الشخصية، وهذا يعني أنَّ المتغلب مؤهلٌ في الأصل للحكم لكنَّه استعجل الشيء قبل أَوانه ولم يَستشِر أصحاب الاختصاص؛ فهو باغٍ متغلِّب لا تُصحَّح ولايته مهما استمرت.

(٥٠) المرجع نفسه، ص٣٢٨.
(٥١) المرجع نفسه، ص٣٢٨.

أمن الإنسان في ضوء القرآن

د. محمد محمود كالو

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة أديامان التركية

مِن أرقى النعم الكبرى على جميع المخلوقات من إنس وجنٍّ وحيوان نعمةُ الأمن، وقد جعله الله تعالى نعمة جليلة وتفضل به على خلقه، وبدونها لا استقرار ولا راحة ولا سعادة لذلك تبذل المجتمعات البشرية جميع إمكانياتها لاستتباب الأمن لعلمها أن نعمة الأمن مقدمة على مطالب الحياة كلِّها فالخائف لا يستمتع بغذائه ولباسه ومسكنه من دون توفير الأمن والطمأنينة، لذلك قرن الله تعالى بين الطعام والأمن في معرِض حديثه عن النعم التي أنعم بها على قريش، فقال سبحانه وتعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [قريش:٣-٤] ومن هنا يكون فقد الأمن نقمة ينتقم الله تعالى بها من بعض خلقه من عاصين أو كافرين.

وتحتاج الشعوب والدول إلى ضمان أمنها النفسي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري فضلًا عن أمنها الخارجي، وما لم يتحقق لها ذلك لن تتمكن من النهوض والتطلع إلى المستقبل بل يظل الخوف مهيمنًا على خطواتها مقيدًا لتطلعاتها، فحين يضطرب نظام الأمن في بلدٍ ما وتختل عوامل السيطرة على تصرفات المجتمع؛ فإن الفوضى ستكون سيدة سائدة، وتُمْنَى الأنفس والأموال والأعراض بالسفك والبطش والهتك، وفي عصرنا الراهن مشاهد حية لاضطراب الأمن في عدة بلدان إسلامية، نسأل الله لها الفرج القريب، وعلينا أن نعلم أن الأمن المطلق لا يتحقق للإنسان في الحياة الدنيا، فالأمن المطلق لا يكون إلا في دار النعيم التي وعد الله بها عباده الصالحين، فقال تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} [الحجر:٤٦].

ويمكن تعريف الأمن بأنه شعور الإنسان بالسكينة والطمأنينة على حاجاته الدنيوية والأخروية وبدون تكلفة منه عند توفر أسبابه[١] وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: أن الأمن عند فقهاء المسلمين ما به يطمئن الناس على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويتجه تفكيرهم إلى ما يرفع شأن مجتمعهم وينهض بأمتهم[٢].

وقسمت البحث إلى مبحثين وخاتمة شاملة لأهم النتائج:

المبحث الأول:

الأمن في القرآن وعلاقته بالإيمان

المطلب الأول: الأمن في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم لفظ (أمن) ومشتقاته في ثمانيةٍ وأربعين موضعًا موزعة على ثلاث وأربعين آية، تسع وعشرون منها

(١)- التربية الأمنية في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية، للدكتور عبد السلام حمدان اللوح، والدكتور محمود هاشم عنبر، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، يناير، ٢٠٠٦م: ٢٣٢.

(٢)- الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠١٢م:٦/ ٢٧١.

مكية في واحد وثلاثين موضعًا، وأربع عشرة آية منها مدنية في سبعة عشر موضعًا، وذلك في أربع وعشرين سورة، سبع منها مدنية، وسبع عشرة سورة مكية، مما يؤكد حاجة العهد المكي إلى مزيد من الأمن المفقود يومئذ للمؤمنين، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة وقامت لهم دولة أصبح الحديث عن الأمن حسب الحاجة والضرورة[٣]. لكن لم يرد لفظ (الأمن) مصدرًا إلا في خمسة مواضع، في ثلاثةٍ منها ورد معرَّفًا:

١- مرة في سورة النساء، قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:٨٣].

٢- ومرتين في موضعين متتاليين في سورة الأنعام، قال سبحانه وتعالى:{أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ } [الأنعام: ٨١-٨٢].

وورد مرتين مُنَكَّرًا:

١- المرة الأولى في قول الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥].

٢- والثانية في قوله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة:١٢٥].

والمأمن: هو موضع الأمن أو المكان الآمن، ومنه قول الله تبارك وتعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ} [التوبة:٦].

وورد على غير صورة المصدر بلفظ الماضي أو المضارع أو المشتق كاسم الفاعل المفرد أو الجمع في عشرين صيغة، وهي: (أمِنَ، أمنتكم، أمنتم، أمنوا، أمنكم، تأمَّنَّا، تأمنه، يأمن، يأمنوا، يأمنوكم، آمنَّا، آمِنَة، آمنون، آمنين، الأمن، أمنًا، أَمَنَة، مأمنه، مأمون، آمنهم)

واللافت للنظر أن هذا اللفظ ورد بعدة أشكال لكنه لم يرد مقيدًا بشيء لا بوصف ولا بإضافة، ومعنى ذلك أنه غير قابل للتبعيض، فالأمن شيء كلي شامل لا يقبل التبعيض، فهذه نقطة مهمة وهو أن الأمن نعمة يتنعم بها الناس، إما أن تكون وإما أن لا تكون[٤].

المطلب الثاني: علاقة الإيمان بالأمن

هناك علاقة وطيدة بين الإيمان والأمانة والأمن، فهذه الألفاظ الثلاثة تنتمي إلى مادة واحدة؛ لذلك لا يتصور الراغب الأصفهاني أن يكون هناك أمن بدون إيمان، لأن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن أي سكينة واطمئنان واستقرار، يقول في مفرداته: (أصل الأَمْن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأَمْنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان... وآمَنَ إنما يقال على وجهين: أحدهما متعدٍ بنفسه، يقال: آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن؛ والثاني غير متعدٍّ، ومعناه صار ذا أمن. والإيمان هو التصديق الذي معه أمن، وليس من شأن القلب -ما لم يكن مطبوعًا عليه- أن يطمئن إلى الباطل)[٥].

(٣)- التربية الأمنية في ضوء القرآن الكريم: ٢٣٠.

(٤)- نظرات في مفهوم الأمن في القرآن الكريم، ورقة عمل للدكتور الشاهد البوشيخي، ألقيت في الملتقى الثاني للقرآن الكريم بمكناس، المغرب.

(٥)- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ: ٩١.

التصديق الذي يكون معه أمن يكون بالقيام بأداء الأمانات كلها بصفة عامة؛ إذ جعل الشرع الصلاة أمانة والزكاة أمانة وتربية الأولاد أمانة، وكل تكليف من تكاليف الشرع أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له، فإذا أدى الناس هذه الأمانات تحقق الإيمان وشعروا بالراحة الكاملة نتيجة الإيمان وأداء الأمانة فالأمن إذًا نتيجةٌ وليس فعلًا يمكن أن نفعله، وإنما هو ثمرة طيبة ونعمة من الله تعالى يتفضل بها علينا إذا آمنا وهو الشرط الأول، وإذا عملنا الصالحات وهو الشرط الثاني، قال الله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥].

إن الإيمان هو الذي يقودنا إلى الأمن والأمان والطمأنينة والسعادة، وقد وعد الله تبارك وتعالى المؤمنين بالأمن في الدنيا والآخرة، وذلك حين وعدهم بالأمن في الدنيا على أنفسهم وأموالهم ودينهم ومساجدهم، ومنَّ عليهم بالأمن أثناء قتالهم لأعدائهم، ووعدهم بالأمن في الآخرة من فزع يوم القيامة ومن عذاب جهنم، فهم في جنة الله آمنون[٦]، قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام:٨٢].

يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: والفساد الذي يحدث في غير المسلمين هو في الحقيقة بسبب تقصير المسلمين، لأن شرطة الأرض المنظمة للسير في الكرة الأرضية هي الأمة الإسلامية، هذا موقعها لا واقعها، ولكنها للأسف لم ترتقِ الآن إلى الموقع وهي الآن في واقع نعرفه جميعًا؛ ولذلك فإن مفهوم الأمن بالنسبة لهذه الأمة لا يتبعَّض لأن مقره القلب.

أما الكافرون فلا أمن لهم في الدنيا والآخرة من عذاب الله تعالى ومكره، قال الله سبحانه: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٩].

المبحث الثاني:
أقسام الأمن في القرآن الكريم

المطلب الأول: الأمن النفسي

القرآن الكريم زاخر بالنماذج والتوجيهات الأمنية، ومنها الأمن النفسي، إن الإنسان يعاني في هذا العصر أمراضًا نفسية خطيرة لم تُعرف فيما سلف من الأزمان كمًّا ولا نوعًا، وعجزت المجتمعات المعاصرة عن إيجاد مجتمع آمن؛ لأن جميع الدراسات الغربية عن علم النفس الإنسانية قامت بمعزل عن الباري جل جلاله وبعيدًا عن الدين، فانحدرت الفضائل، وضاعت القيم والخلاق[٧].

مما لا شك فيه أن للقرآن الكريم أثرًا عظيمًا في تحقيق الأمن النفسي والطمأنينة القلبية والسكينة؛ فهي نور وروح من الله يسكن إليه الخائف الفزِع، ويطمئن عنده القلِق المضطرِّب، وقد بين القرآن الكريم ما يحدثه الإيمان من أمن وطمأنينة في نفس المؤمن بقول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد:٢٨] فهو يحقق للمؤمن سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها، لأن إيمانه الصادق بالله يمده بالأمل والرجاء في عون الله ورعايته وحمايته، قال الألوسي: والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد المنزل من الذكر: أَلا بِذِكْرِ اللهِ وحده تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ لله دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيا[٨].

---

(٦) – التربية الأمنية في ضوء القرآن الكريم: ٢٣٠.

(٧)– الأمن النفسي في العلاقة مع الله كما يصورها القرآن الكريم، انشراح أحمد توفيق اليرودي، بحث منشور في المجلة العربية للدراسات الأمنية، المجلد ٣٢، العدد ٦٧، الرياض، ١٤٣٨ هـ ٢٠١٦م: ١٦٥.

(٨)– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة

وقد بدأت تظهر حديثًا اتجاهات بعض علماء النفس في العصر الحديث تنادي بأهمية الدين في علاج الأمراض النفسية، وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمد الإنسان بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة، وتجنبه القلق الذي يُصاب به كثير من الناس الذين يعيشون في هذا العصر الذي تغلب عليه الحياة المادية، ومن أولئك العلماء وليم جيمس عالم النفس الأمريكي، يقول: إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان[٩].

ونلمس مثالًا للأمن النفسي في مطلع سورة يوسف -عليه السلام- من خلال نصيحة نبي الله يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، قال الله تعالى حكاية عن يعقوب: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يوسف:٥] هذا التوجيه والنصيحة ودعوة الأب ابنَه إلى كتم الرؤيا عن إخوته تربيةٌ أمنية خوفًا من زيادة الحسد والكراهية وما يترتب عليهما من غدر ومكر فلا يُشكِلُ كَيْفَ حَذَّرَ يَعْقُوبُ يُوسُفَ- عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} لِيَعْلَمَ أَنَّهُ مَا حَذَّرَهُ إِلَّا مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ فِي نُفُوسِ إِخْوَتِهِ[١٠].

وكذلك نلاحظ الأمن النفسي في قول الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف:٦٧] قال القاسمي: أي لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار من يقف عليه من الجند ومن يعسُّ للحاكم فيريب بهم لأن دخول قوم على شكل واحد وزيٍّ متحد على بلدٍ هم غرباءُ عنه مما يلفت نظر كل راصد، وكانت المدن وقتئذ مبوَّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها، وعلى كل باب حرسه، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبه وإتْبَاع البصر[١١].

لقد وجه نبي الله يعقوب -عليه السلام- أبناءه توجيهًا أمنيًّا تُؤخذ منه العبرة والعظة، وذلك من خلال أخذ كل وسائل الحيطة والحذر في مثل هذه الأحوال.

أما الأمن النفسي يوم القيامة فإن المؤمن في الجنة سليم الصدر من كل ما يشوب أمنه وطمأنينته واستقراره النفسي، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} [الحجر:٤٥-٤٦].

المطلب الثاني: الأمن السياسي

هو تحرر المواطنين جميعًا من الخوف والحاجة، وضمان تأمين الحماية من تهديد القمع السياسي، وحمايتهم من الصراعات والحروب والهجرة، فلا استثناء أو تمييز لأنه حقٌّ من الحقوق المكتسبة للإنسان، وقيل: هو احترام حقّ الإنسان في التعبير عن رأيه وحمايته من القمع الذي قد يواجهه.

ويظهر الأمن السياسي في سياق قصة أصحاب الكهف، قال الله تعالى: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [الكهف: ١٩] يبين القرآن الكريم حالة فتية استيقظوا من نومهم يوصي بعضهم بعضًا أن يكونوا على حذر لئلا يشعر بهم أحد، ويظهر الأمن السياسي من خلال قولهم {وَلْيَتَلَطَّفْ} أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، {وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} أي: ولا يفعلن ما يؤدي من غير قصد منه إلى العلم بنا والشعور بوجودنا؛ فإن أهل ملتهم إن عرفوا أمرهم قتلوهم بالحجارة أو أعادوهم إلى ملتهم، وهنا يتبين مفهوم الأمن السياسي، وهو وجود تلك القوة الظالمة التي تتربص بالفتية للقتل بوصفهم خارجين على الدين لأنهم

الأولى، ١٤١٥ هـ: ٧/ ١٤١-١٤٢.

(٩)- الأمن النفسي في العلاقة مع الله كما يصورها القرآن الكريم: ١٦٦.

(١٠)- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ: ١٢/ ٢١٤.

(١١)- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ، ٦/ ١٩٧.

يعبدون إلهًا واحدًا في المدينة المشركة، أو يفتنونهم عن عقيدتهم بالتعذيب لذلك يوصون الرسول أن يكون حذرًا لبقًا[١٢] قال الزمخشري في معنى وَلْيَتَلَطَّفْ: وليتكلف اللطف والنِّيقة[١٣] فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف[١٤].

ونلاحظ هذا الأمن السياسي أيضًا في قوله تعالى: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص:٢١] يترقب أي: يلتفت يمينًا وشمالًا، متخذًا في ذلك كل قواعد الحيطة والحذر، قال الفخر الرازي: أَيْ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْتَظِرُ هَلْ يَلْحَقُهُ طَلَبٌ فَيُؤْخَذُ، ثُمَّ الْتَجَأَ إِلَى اللهَّ تَعَالَى لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ سِوَاهُ فَقَالَ: {رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَتْلَهُ لِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ لَمْ يَكُنْ ذَنْبًا، وَإِلَّا لَكَانَ هُوَ الظَّالِمَ لَهُمْ وَمَا كَانُوا ظَالِمِينَ لَهُ بِسَبَبِ طَلَبِهِمْ إِيَّاهُ ليقتلوه قصاصًا[١٥].

ومنه قول الله سبحانه وتعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص:٢٠-٢١] قال ابن كثير: وَصَفَهُ بالرّجُولية لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ، فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعِثوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: يَا مُوسَى {إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ} أَيْ: يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ {لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ} أَيْ: مِنَ الْبَلَدِ {إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}[١٦].

والتأكيد بـ (إنَّ واللام) لمناسبَ مقتضى الحال فيجدَ موسى مخرجًا، فالملك وبطانته ورجال دولته يدبرون لك المكائد وينصبون لك الحبائل، فاهرب قبل أن يلقوا القبض عليك وينفذوا ما دبَّروه ويقتلوك -إنه الأمن السياسي- فخرج موسى من مدينة فرعون خائفًا يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينًا ويسارًا وينظر أيتبعه أحد، متخذًا جميع قواعد الحيطة والحذر.

إن مفهوم الأمن عمومًا والسياسي خاصةً يُدلِّل على ضرورة البحث والتحري الدائم لأسباب الاستقرار والتماسك المجتمعي والتحرر من الخوف، وهو ما تم تغييبه في سورية إبان حكم حافظ الأسد وتحول إلى مفاهيم أمنية خاصة بالسلطة الحاكمة فعملت الاستراتيجية الأمنية على نشر فلسفة ابتعاد المجتمع عن السياسة قولًا وممارسة، وأغلقت هذا الباب بحيث أضحى حَكرًا على العائلة الحاكمة وأعوانها،

واعتمدت السلطة في سبيل إحكام سيطرتها بواسطة الأجهزة الأمنية على أسلوب توليد العداء وخلق الحالة التنافسية بين جميع الأجهزة الأمنية المختلفة والقائمين عليها، فارتبط مؤشر الأداء الجيد بمعياري الولاء والطاعة المطلقة، وأُطلِقت أيدي الأمن في جميع مفاصل الدولة، فنتج عن ذلك التدخل في أبسط مناحي الحياة ابتداء من رخصة بائع متجول إلى عضوية مجلس الشعب وترفيع ضباط الجيش، وهو ما شكَّل مصدر ثراء فاحش لهم، وتنامت ثقافة الرعب من الأجهزة الأمنية في المجتمع عبر تكريس تركيبة طائفية متناقضة داخل دائرة القرار في كل فرع مع تعميق ثقافة التقارير في المجتمع.

---

(١٢)- مشاهد الأمن كما تصورها القصة القرآنية، الدكتورة يسرى أحمد البيرودي، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج (١٢)، ع (٤)، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م: ٣٧٦.

(١٣)- النيقة: مشتقة من الأناقة، جاء في لسان العرب: قَالَ اللَّيْثُ: النِّيقةُ مِنَ التَّنَوُّق، تَنَوَّق فُلَانٌ فِي مَنْطِقِهِ وَمَلْبَسِهِ وأُموره إِذَا تجوَّد وَبَالَغَ، وتَنَيَّق لُغَةٌ.

[لسان العرب لابن منظور: ١٠/ ٣٦٣].

(١٤)- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: ٢/ ٧١٠.

(١٥)- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ: ٢٤/ ٥٨٧.

(١٦)- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م: ٦/ ٢٢٦.

المطلب الثالث: الأمن الاجتماعي

لا شك أن الأمن الاجتماعي من العوامل الأساسية في حياة الفرد والمجتمع، فهو نعمة من أعظم النعم الإلهية، ومعناه شعور الفرد بالانتماء للمجتمع، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة:١٢٦] لقد جعل الله عز وجل الأمن من خصائص بيته المحرم الذي له من المنزلة والفضل والمكانة ما ليس لغيره، وكان المطلب الأول في دعوة إبراهيم الخليل -عليه السلام- ربه أن يجعل البيت الحرام آمنًا يأمن فيه الناس على أموالهم ودمائهم وعبادتهم ذلك أن الأمن هو الأساس والمنطلق للتنمية والتطور، وهو السلاح الفاعل في مواجهة الخوف، وهو الصيانة والوقاية لمنجزات الحاضر والمستقبل[١٧].

ومن الأمن الاجتماعي قوله تعالى حكاية عن أم موسى عليه السلام: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [القصص:١١]، وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ أي: لمريم أخت موسى، قُصِّيهِ أي: اتبعي أثره حتى تعطي خبره، {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ} أي عن بُعْد، قيل: كانت تمشي جانبًا وتنظره اختلاسًا ترى أنها لا تنظره، {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} أنها أخته وأنها ترقبه[١٨] مخافة أن يكشف أمرها، ففي هذا النص القرآني توجيه أمني تؤخذ منه العبرة والعظة.

ونلمس توجيهًا للأمن الاجتماعي في قصة أصحاب الجنة فالقصة تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الثابتة، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة الدنيا حيث تذهلها الثروة وتبطرها النعمة، وللنفس المعتزة بإيمانها بالله سبحانه، فهي ترى النعمة دليلًا على المنعم يوجب الحمد والشكر، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَّـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} [الكهف:٣٢-٤٤].

ترشد هذه القصة إلى أن شكر النعمة سبب لدوامها، ويأمن أصحابها على أنفسهم وأموالهم، وأما كفر النعمة فيسبب زوالها وزوال الأمن عن أصحابها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا)[١٩]

(١٧) مسؤولية الأفراد والأجهزة الحكومية في تحقيق الأمن الاجتماعي، ورقة عمل لعبد الستار الهيتي، مقدمة لمؤتمر الأمن الاجتماعي تحديات وتطلعات المنعقد في البحرين لعام ٢٠٠٧م، ص٤.

(١٨) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ٣/ ٣٥٩.

(١٩) رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم (٣٠٠) ١/ ١١٢، ورواه ابن حبان في صحيحه: ٢ / ٤٤٦، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، برقم (٢٣٤٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية، ج٤/ ص٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، برقم (٤١٣١).

قال أبو حامد الغزالي: فلا ينتظم الدين إلا بتحقق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟[٢٠].

المطلب الرابع: الأمن الاقتصادي

عرفه أحد الباحثين قائلًا: هو أن يملك المرء الوسائل المادية التي تُمكنُه من أن يحيا حياة مستقرة ومشبعة[٢١]، لكن هذا التعريف جعل الأمن الاقتصادي قاصرًا على أمن الفرد من حيث توفيرُ احتياجاتِه واستقرارِه، بينما يتعدى مفهومُ هذا المصطلح أمنَ الفرد ليشمل أمنَ المجتمع واستقرارَه، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة:١٢٦. جمعت هذه الآية بين الأمن واحتياجات الإنسان الضرورية الداعية لاستقراره كالطعام والشراب، فلا بد لشعور الناس بالأمن من توفر حاجتهم المعيشية وقناعتهم وطمأنينتهم بما يصل لهم؛ فالأمن الاقتصادي شرعًا هو: تأمينُ الموارد والاحتياجاتِ التي توفر الاستقرار وتحفظ النفوس، وتأمينُ طرقِ وُصُولِها[٢٢].

ويظهر الأمن الاقتصادي جليًّا في قوله تبارك وتعالى: {وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّـهِ فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل:١١٢]، أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار وسعادة ونعيم يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعةٍ وكثرةٍ من كل الجهات {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ} أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير وما وهبهم من رزق؛ {فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف} أي سلبهم اللهُ نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان[٢٣].

ولكون الأمن ضروريًّا للحياة قرنه الله سبحانه بالطعام والأموال والأولاد في أكثر من موضع، بل قدَّمه عليها في مثل قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة:١٥٥] فقد بدأ بضد الأمن وهو الخوف لأن الحياة بدون أمن وأمان لا تطاق، وامتن الله تعالى على قريش قبل بَعثة النبي صلى الله عليه وسلم بأن هيأ لهم الأمن خاصة بعد حادثة الفيل حيث جاء نصر الله على أبرهة وأصحابه، لكن لم يكن بيد قريش لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، قال الله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [قريش:٣-٤] ولهذا جاءت سورة قريش عقب سورة الفيل فعاشت قريش بعد هذا آمنة مطمئنة في كنف الكعبة، لا ينالها أحد بسوء رغم كثرة النهب والسلب والخوف، بل تعدى الأمن إلى قوافلها التجارية في رحلتي الشتاء والصيف لأنها تجارة أهل البلد الأمين، قال الله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّـهِ يَكْفُرُونَ [العنكبوت:٦٧] قال الزمخشري: والتنكير في جُوعٍ وخَوْفٍ لشدتها يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلها، وآمنهم من خوف عظيم؛ وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطُّف في بلدهم ومسايرهم[٢٤].

(٢٠) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، طبعة القاهرة، بدون تاريخ: ٢/ ٥.

(٢١) التخطيط الاستراتيجي لتحقيق الأمن الاقتصادي، سعيد علي حسن، ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر تقنية المعلومات والأمن الوطني، الرياض، ٢٠٠٧م: ٤.

(٢٢)- وسائل تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام، الدكتور محمد منصوري، بحث منشور في مجلة الإحياء الجزائرية، العدد ٢٠، لعام ٢٠١٧م: ٤٥١.

(٢٣)- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني– القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م: ٢/ ١٣٥.

(٢٤)- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ: ٤/ ٨٠٣.

أمَّا قريش فقد قابلت تلك النعمة بالكفران قولًا وعملًا فحولت بيت الله الحرام إلى منتدى للطاغوت، وأحاطت الكعبة بالأصنام، وعبدت من دون الله سبحانه أوثانًا، ولم تكتفِ بذلك بل حاربت عباد الله المؤمنين في البلد الأمين مكة، وسامت الصحابة سوء العذاب، وحولت بلد الأمن والأمان إلى بلد الأشباح والرعب للمؤمنين الصادقين، وأجابت الرسول الكريم بالشرك والكفر بنعمة الله تعالى، قال الله تعالى حكاية عنهم: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص:٥٧]، إنها لخدعة ومغالطة معكوسة، فهي تفصل بين الهدى والأمان مع أنهما متلازمان، فقد احتجت بأنها إن استجابت للرسول صلى الله عليه وسلم واتبعته على ما جاء به من الهدى حاربتها القبائل الأخرى وقاتلتها وأفقدتها هذا الأمن والأمان، لكن جاء الجواب على هذه الدعوى الباطلة سريعًا وقويًّا، فقال الله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص:٥٧]، أفمن أمَّنهم وهم عصاة يدعهم يُتخطفون وهم مطيعون تقاة؟! بل إنه سبحانه وتعالى أنعم عليهم مع الأمنِ بنعمة الرزق والازدهار الاقتصادي والنشاط التجاري حيث يُجبى إليهم ثمرات كل شيء ومن كل مكان رغمَ أنَّ بلادهم ليست بلادًا زراعيَّة.

دعواهم تلك بأن الإيمان يفقد الأمن ليست منطق قريش فقط؛ بل نجد هذه الأيام من يدعي بأن تطبيقنا للإسلام سيجر علينا الويلات ويفقدنا الأمن والأمان، وسيثير علينا الفتن والاضطرابات والحروب داخليًّا وخارجيًّا، إنه عين ما احتجت به قريش، فهل فقدت قريش أمنها؟ وهل أغارت عليها القبائل؟ ألبتة، بل الواقع كذَّب ذلك؛ فحين اتبعت قريش الهدى رجع إليها أمنها أقوى مما كان، ودخلت القبائل في دين الله أفواجًا، وبسطت سيطرتها على مساحات شاسعة في مشارق الأرض ومغاربها.

يقول الأمريكي برنارد لويس: إن الدول الإسلامية قد تسقط أو تزول كدولة بالغزو العسكري، ولكن المجتمع يظل في حياته محكومًا بقوانينه الإسلامية في معاملاته وعلاقاته ربما عشرات السنين حتى تقوم الدولة من جديد، وهي تجربة مرت بها الدول الإسلامية التي خضعت للاستعمار عشرات السنين[٢٥].

لقد ربط القرآن الكريم الأمن بالاقتصاد لأنه لا اقتصاد بلا أمن ولا أمن بلا تقدم في الاقتصاد؛ لذلك يفر التجار الكبار بأموالهم والمقاولون بأعمالهم وخططهم من الأماكن المضطربة وبلدان الحروب ولا يستثمرون فيها، ومن هنا لما دعا نبي الله إبراهيم -عليه السلام- ربَّه عز وجل ربط أيضًا بين الأمن والاقتصاد، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة:١٢٦] وهذه سنة الله في الذين يكفرون بأنعم الله أن يسلبهم الأمن ويذيقهم لباس الجوع والخوف، قال الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل:١١٢].

وكفران النعمة أنواعه ثلاثة على رتب متفاوتة، قال الله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [الحجرات:٧]:

١- الكفر الصريح: وهو أخطرها، وهو عدم الإيمان بالله ورسله.

٢- الفسوق: وهي أقل خطرًا من الأولى، فهي الخرق المستمر للطاعة ورفض الامتثال مطلقًا مع إيمان واعتراف بوجود الله تعالى، وإلى هذا النوع ينتمي إبليس.

(٢٥)- الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، عبد الله بن عبد المحسن التركي، د.ت: ٣.

٣- العصيان: وهو ما لا يكون معه إصرار على رفض طاعة الله تعالى مطلقًا، ومنه قول الله تعالى عن آدم عليه السلام: {وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ} [طه:١٢١-١٢٢]، فمعصية آدم كانت نتيجة خطأ وزلًا عارضًا، والعصيان إنما يكون ممن يطيع أحيانًا ويعصي أحيانًا، ومع هذا فإن المعصية ما دامت قائمةً فإنها تمنع بقدر وجودها حصول الأمن عند العاصي سواء كان فردًا أم جماعة أم أمة من الأمم.

المطلب الخامس: الأمن العسكري

يعتمد في الأساس على المعلومات وسريتها ومدى دقتها لذلك تسابقت الشعوب منذ القدم على استخدام كل الوسائل والتقنيات للحصول على تلك المعلومات التي تحفظ أمنها العسكري، وتعد العقيدة العسكرية ركنًا مهمًّا يؤثر في قواعد الإعداد الحربي بنوعيه المعنوي والمادي، هذا ويمكن تقسيم الإعداد المادي العسكري إلى قسمين:

أولًا: إعداد الجنود والضباط بأحدث الطرق والأساليب العالمية.

ثانيًا: توفير كل الإمكانيات العسكرية المتطورة المواكبة لتقنيات العصر من الأسلحة الخفيفة إلى الثقيلة؛ لتمتلك الدولة قدرة ردع دولية قوية، قال الله تعالى: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً} [النساء:١٠٢].

لقد شرع الإسلام نظامًا شاملًا للحرب يتسم بالرحمة والعدل ويطبع العقيدة العسكرية التي تستمد منه بطابع سلمي غير عدواني[٢٦]، قال الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ. وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال:٦٠-٦١].

إن المسلم يتحلى بعقيدة عسكرية ثابتة، فقتاله من أجل الله وفي سبيله، لا يبتغي مغنمًا أو جاهًا أو مكانًا رفيعًا في الدولة كما لا يقاتل من أجل قومية أو عصبية أو شهرة، فهذه غايات تحبط الأعمال وتقدح في العقيدة الصحيحة التي غرسها النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه[٢٧].

ورد في القرآن الكريم لفظ (أَمَنَة) في موضعين في حديثه عن غزوتين:

أ- في غزوة بدر، حين أنزل الله تعالى النعاس على الصحابة أثناء المعركة، قال سبحانه وتعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} [الأنفال:١١].

فبدر كان يُعد موقعًا استراتيجيًّا للترتيبات العسكرية والإجراءات الأمنية المقدَّمة المتخذة قبل المعركة، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى المطر ليلبد الأرض تحت أقدام المسلمين؛ فساعد في تحرك القوات بشكل سريع حسب الخطة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم.

ب- في غزوة أحد، قال الله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ} [آل عمران:١٥٤]. كان القرار بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة بالقرب من جبل أحد، وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم التدابير الأمنية العسكرية اللازمة بأعلى درجاتها لحماية كتائب الجيش ومواقع التمركز والانطلاق للعمليات العسكرية المخطط لها بحكمة ودقة بالغة، قال الله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران:١٢١] قال ابن كثير: أي: تُبَيّن لهم منازلهم وتجعلهم مَيْمَنة ومَيْسَرة وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ[٢٨].

(٢٦)- العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، جمال يوسف الخلفات وآخر، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م: ٨٧.

(٢٧)- الأمن العسكري في السنة النبوية: دراسة موضوعية تحليلية، نهاد يوسف الثلاثيني، الجامعة الإسلامية/ غزة، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ٣٦.

(٢٨)- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١١٠.

كان مجلس الشورى الأعلى بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم يسمع من الرسول الأخبار التي ترد تباعًا من جهاز الاستخبارات بأن حشود الأحزاب بدأت في التجمع لاستئصال المسلمين، وأن الهجمة باتت قريبة بقوة لا يستهان بها، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بضرورة حفر خندق يحيط بشمال المدينة لأنها منطقة مكشوفة، أمَّا الجهات الأخرى فهي محصنة بالجبال المحيطة بالمدينة، وقد صور الله تعالى ذلك كله على أنه من البلاء الشديد والجوع الديقوع[٢٩] والحصار الضيق؛ فقال تعالى: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب:١٠-١١].

وتهتم العقيدة العسكرية الإسلامية بالمقاتل اهتمامًا كبيرًا لقدسية الروح المسلمة عند الله تعالى، قال سبحانه: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣] فالقائد المسلم الذي يفرط في تقديم الخسائر بالأرواح عبثًا ليس قائدًا ولا مسلمًا، فقد كان القادة المسلمون يحرصون أشد الحرص على أرواح المجاهدين، وغالبًا ما كانوا يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالأمن[٣٠]؛ لذلك شرع الباري سبحانه صلاة الخوف في وقت الحرب حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غِرَّة، يقول اللواء محفوظ: وأخطر ما تتعرض له الأمم في هذا المجال هو المباغتة؛ لذلك تسعى بأقصى جهدها لكي تمنع العدو من مفاجأتها، وذلك بأن تؤسس استراتيجيتها العسكرية على استخدام مختلف أجهزة الإنذار المبكر ووسائل الاستطلاع المتقدمة[٣١].

ومن الأمن العسكري مشروعية الاتفاقات والمعاهدات بين المسلمين وغيرهم؛ لذا أكدت الآيات القرآنية على الوفاء بالعهد وعدم الغدر في ذلك، فقال جل جلاله: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:٧].

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة التي تناولت نعمة أمن الإنسان في ضوء القرآن يمكن استخلاص أهم النتائج:

١- جميع المخلوقات عامة والإنسان خاصة بحاجة ماسَّة إلى نعمة الأمن، فهي تفوق حاجته إلى طعامه وشرابه وملبسه ليعيش حياة سعيدة مستقرة مطمئنة.

٢- كلمة الأمن لم ترد مقيدة بشيء لا بوصف ولا بإضافة لأنها لا تقبل التبعيض، وقد وردت بصيغٍ واشتقاقات عدةٍ في أربع وعشرين سورة، سبعة منها مدنية، وسبع عشرة سورة مكية، وهذا يؤكد حاجة العهد المكي إلى مزيد من الأمن المفقود يومئذ.

٣- هناك علاقة وطيدة بين الإيمان والأمانة والأمن، فلا يتصور أن يكون هناك أمن بدون إيمان؛ فالإيمان هو التصديق الذي معه أمن واطمئنان واستقرار.

٤- في القرآن الكريم نماذج وتوجيهات أمنية عدَّة كالأمن النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري وغيره.

٥- جعل الله -عز وجل- نعمة الأمن من خصائص بيته الحرام الذي له من المنزلة ما ليس لغيره، فهو المطلب الأول في دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.

٦- ربط القرآن الكريم الأمن بالاقتصاد لأنه لا اقتصاد بلا أمن؛ لذلك يفر التجار الكبار بأموالهم ولا يستثمرونها في الأماكن المضطربة وبلدان الحروب.

٧- يكون الأمن العسكري بتوفير كل الإمكانيات العسكرية المتطورة والمواكبة لتقنيات العصر من الأسلحة الخفيفة إلى الثقيلة؛ لتمتلك الأمةُ قدرةَ ردعٍ دوليَّةً قويةً.

(٢٩)- الديقوع: الشديد، من الجوع المدقع، قال ابن منظور: وجُوع دَيْقُوعٌ: شَدِيدٌ. [لسان العرب:٨/ ٩٠].

(٣٠)- العسكرية العربية الإسلامية، محمود شيت خطاب، مطابع الدوحة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ:٥٧.

(٣١)- المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، محمد جمال محفوظ، دار الاعتصام، ط٢، ١٩٧٦م: ١٧٠.

الأخذ بالعزائم منهج القدوات

د. محمد تركي كتوع

دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله، مدرس في أكاديمية باشاك شهير

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد: فقد أنزل الله الشرائع وأمر رسله وأنبياءَه بتبليغها للناس وحثِّهم على تطبيقها والامتثال لها، ولئلا يظنَّ ظانٌّ أن هذه الشرائع مجرَّد معلومات وأحكام نظرية أو أنها غير قابلة للتطبيق؛ قام الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- بترجمة هذه الشرائع في سلوكهم وتصرفاتهم لتسهيل فهْم هذه الشريعة ورؤيتها واقعًا حيًّا أمام أنظار الناس، إعذارًا لهم لئلا تكون لهم حجة في الإعراض عنها أو عدم العمل بها، فأمرنا الله عزَّ وجلَّ بالاقتداء بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١]، وقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] والعلماء ورثة الأنبياء في أداء هذه المهمة والقيام بها، فنحن مأمورون باتباعهم والاقتداء بهم، وهؤلاء هم الأشخاص المقتدَى بهم المقصودون في هذا البحث، قال الشاطبي: وقد ثبت في الأصول أن العالم في الناس قائم مقام النبي عليه الصلاة والسلام، والعلماء ورثة الأنبياء فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم يدل على الأحكام بقوله وفعله وإقراره كذلك وارثه يدل على الأحكام بقوله وفعله وإقراره[1].

والنفس البشرية إما أن تؤثِّر وإما أن تتأثَّر، ولن تخرج عن هاتين الحالتين، يقول الإمام الغزالي: الطباع مجبولة على التشبُّه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرِّك الحرص ومجالسة الزاهد تزهِّدُ في الدنيا؛ فلذلك تكره صحبة طلَّاب الدنيا ويستحبُّ صحبة الراغبين في الآخرة[2]، ويقول الإمام الشاطبي: التَّأَسِّيَ بِالْأَفْعَالِ- بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يُعظَّم فِي النَّاسِ- سِرٌّ مَبْثُوثٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الِانْفِكَاكِ عَنْهُ بِوَجْهٍ وَلَا بِحَالٍ[3]، فعملية الاقتداء ليست حالة طارئة قد تحصل وقد لا تحصل، بل هي غريزة فطرية مغروسة في النفس البشرية، يغذِّيها ما طُبِعَ عليه الإنسان من التأثير والتأثُّر بين المقتدِي والمقتدَى به سواء كان رئيسًا أو مرؤوسًا، فحاجة الناس إلى القدوة نابعة من هذه الغريزة التي تعبِّر عن رغبة الإنسان في المحاكاة والاستعداد النفسي للتقليد، وهي رغبة ملحَّة تدفع الطفل والضعيف والمرؤوس إلى محاكاة سلوك الرجل والقوي والرئيس، وسبب هذه الرغبة -كما أوضحنا- الحقيقة الثابتة ألا وهي: تأثير الطباع في الطباع.

عندما يصبح الإنسان قدوة للآخرين ينظرون إلى أفعاله ويراقبون تصرُّفاته ويُحاكون سلوكه، فينبغي أن يدرك عِظَم هذه المسؤولية وأهميتها وأثرها، فأَنْ تكون قدوة هذا يعني

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، ٢/ ٥٩٧.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة)، ٢: ١٧٣.

(٣) الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ٥: ٢٦٢.

أنَّ تكليفًا خاصًّا جديدًا أُلقيَ على عاتقكَ، فإنْ لم تكن أهلًا لهذه المسؤولية فلا تتصدَّر لها، نعم إنَّ من يملك مؤهِّلات القدوة الحسنة ومن لا يملكها سواءٌ في أَصْلِ التَّكْلِيفِ عَلَى الْجُمْلَةِ، لكنهما يفترقان بِالتَّكْلِيفِ اللَّائِقِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، ومما يفترقان فيه العمل بالعزيمة والرخصة.

المطلب الأول: مشروعية تخصيص المقتدَى به ببعض الأحكام في الاجتهاد التنزيلي

إنَّ الباحث في ثنايا التشريع الإسلامي وفروعه وجزئياته يجد بما لا يدع مجالًا للشك أن الفقهاء والمجتهدين قد لاحظوا الشخص المقتدَى به أثناء الاجتهاد وتنزيل الأحكام، وخصُّوه بمزيد من التكاليف التي تتناسب مع مكانته وموقعه وأثره في المجتمع، فهذا المعنى كان حاضرًا في أذهان المجتهدين عند تنزيل الأحكام على الوقائع وتكييفها، والأمثلة على هذه الرعايةِ كثيرة، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

* ما رويَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ -رضي الله عنه- رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ نَهْيِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رضي الله عنه- عَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَأَتَاهُ عُمَرُ، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ تَمِيمٌ أَنِ اجْلِسْ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَجَلَسَ عُمَرُ حَتَّى فَرَغَ تَمِيمٌ، فَقَالَ لِعُمَرَ: لِمَ ضَرَبْتَنِي؟ قَالَ: لِأَنَّكَ رَكَعْتَ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَقَدْ نَهَيْتُ عَنْهُمَا، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ صَلَّيْتُهَا مَعَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَيْسَ بِي إِيَّاكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يُصَلُّونَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَتَّى يَمُرُّوا بِالسَّاعَةِ الَّتِي نَهَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُصَلُّوا فِيهَا كَمَا يُصَلُّوا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ رَأَيْنَا فُلَانًا وَفُلَانًا يُصَلُّونَ بَعْدَ الْعَصْرِ[٤].

نظرَ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى تميم الداري نظرة اجتهادية خاصة، وحمَّلَهُ من التكليف ما يليق به بوصفه قدوةً للآخرين إذ أوجب عليه ما لم يوجبه على بقية الناس، ونهاه عن الركعتين بعد العصر حتى لا يقتدِي به مَنْ لا علم عنده خشية أن يصلِّي بعد العصر أولًا ثم يستمرَّ به الحال ويتمادى بعد ذلك فيصلِّي في الوقت المنهي عنه، وعندما ضربه بالدرة أوضح له أنه لم يضربه لسبب متعلِّق بذاته حيث قال: إِنِّي لَيْسَ بِي إِيَّاكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ، يعني أنا لا أقصدكم أنتم بالذات ولكن أقصد الذين يقتدون بكم، فأنتم موضع للاقتداء، ولو كان بقية الناس مثلك -يا تميم الداري- في مرتبة القدوة يميّزون بين أوقات الكراهة وغيرها ويضبطون ذلك مثلك، لَما ضربتك ونهيتك عن الصلاة في هذا الوقت، وهذا ما صرَّح به عمر بن الخطَّاب كما في رواية الإمام أحمد التي جاء فيها: خَرَجَ عُمَرُ عَلَى النَّاسِ يَضْرِبُهُمْ عَلَى السَّجْدَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ، حَتَّى مَرَّ بِتَمِيمٍ الدَّارِيِّ، فَقَالَ: لَا أَدَعُهُمَا، صَلَّيْتُهُمَا مَعَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّاسَ لَوْ كَانُوا كَهَيْئَتِكَ لَمْ أُبَالِ[٥].

خرج هذا النهي على سبيل قطع الذريعة؛ فلو رُخِّص في النافلة بعد العصر لم يؤمَن التمادي فيها إلى اصفرار الشمس وغروبها، ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّهُ رَآهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -وَهُوَ خَلِيفَةٌ- رَكَعَ بَعْدَ الْعَصْرِ رَكْعَتَيْنِ، فَمَشَى إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، وَهُوَ يُصَلِّي كَمَا هُوَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ زَيْدٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَاللهِ لَا أَدَعُهُمَا أَبَدًا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّيهِمَا قَالَ: فَجَلَسَ إِلَيْهِ عُمَرُ وَقَالَ: يَا زَيْدُ بْنَ خَالِدٍ، لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُلَّمًا إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى اللَّيْلِ لَمْ أَضْرِبْ فِيهِمَا[٦].

* ومن هذا الباب ما ذكره الشاطبي من ضرورة تركِ المقتدَى به لبعض المندوبات في بعض الأوقات خشية أن يظنَّ العوام وجوبها، فقال: لا ينبغي لمن التزم عبادة من العبادات البدنية الندبية أن يواظب عليها مواظبةً يفهمُ الجاهلُ منها الوجوب إذا كان منظورا إليه مرموقًا أو مظنَّةً لذلك، بل الذي ينبغي له أن يدعها في بعض الأوقات حتى يُعلَم أنها غير واجبة؛ لأنَّ خاصية الواجب المكرَّر الالتزام والدوام عليه في أوقاته بحيث لا يتخلَّف عنه كما أنَّ خاصيّة المندوب عدم الالتزام، فإذا التزمه فَهِمَ الناظرُ منه نفس الخاصيَّة التي للواجب فَحَمَلَهُ على الوجوب، ثمَّ استمرَّ على ذلك فَضَلَّ[٧].

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ((٨٦٨٤)).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ((١٦٩٤٣))، وقد رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح في الكبير والأوسط. انظر: (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢: ٢٢٢).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ((١٧٠٣٦)) وإسناده حسن، انظر: (الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢: ٢٢٣).

(٧) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ٢: ٢٢٢.

* وجاء في القاعدة الثامنة والسبعين من قواعد المقرِّي: يتأكَّد أمرُ المندوب في حقِّ مَن يُقتدَى به على الصحيح، فإن أمِنَ الاطِّلاع فقولان، والتأكيد لئلا يُطَّلع عليه كما قال مالك في الفطر إذا لم يثبت العيد، أو لئلا يترك حيث يُطَّلع[٨]، وعن مالك: لا أحبّ المرَّةَ إلا من العالِم[٩]، وظاهره مخالفة القاعدة، وعنه: لا أحبّها من العالم، وهو وفاق القاعدة[١٠].

المطلب الثاني: عمل القدوات بالعزيمة حكمه ومشروعيته

موقع القدوات في المجتمع يحتلُّ مرتبة عظمى ومكانة كبرى، فالقدوة ملحوظٌ ومراقبٌ من قِبَل الناس الذي ينظرون إليه دائمًا نظرة التميُّز والتفوُّق، وأنَّ له قصب السبق في مجال التحلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرذائل؛ لأجل هذا كلِّه ينبغي أن يكون سلوكه وفعله متناسقًا ومتناسبًا مع هذه المرتبة دينيًّا ودنيويًّا، فيكون دائمًا في الصفِّ الأول، ولا يُقبَل منه أن يكون في مؤخرة القوم، ومن هنا قيل: إذا أردتَّ أن تكون إمامي فكنْ أمامي و مَن يقدِّم نفسه للناس على أنَّه قائد لا يُقبَل منه أنْ يتصرَّف بصفته فردًا.

وبناءً على هذه المنزلة التي يتمتَّع بها كان الأجدر والأحرى به أن يكون آخذًا بالعزيمة في خاصّة نفسه لأنَّه من أصحاب العزم والخصوصية؛ لهذا جاء خطاب الله تعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الْأَحْقَافِ: ٣٥]. أي أُولو الجِدِّ والحزم والصَّبْر والثَّبات، فالعمل بالعزيمة كما هو مقرَّر عند علماء الأصول تجري عليه الأحكام التكليفية الخمسة، فقد يكون الأخذ بالعزيمة والعمل بها واجبًا أو مندوبًا أو مباحًا أو مكروهًا أو حرامًا[١١]، يقول الإمام الشاطبي: فَالْأَحْرَى بِمَنْ يُرِيدُ بَرَاءَةَ ذِمَّتِهِ وَخَلَاصَ نَفْسِهِ الرُّجُوعُ إِلَى أَصْلِ الْعَزِيمَةِ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَحْرَوِيَّةَ تَارَةً تَكُونُ مِنْ بَابِ النَّدْبِ وَتَارَةً تَكُونُ من باب الوجوب، والله أعلم[١٢].

وأفرد الشاطبي في الموافقات فصلًا تحت عنوان: (قَدْ يَسُوغُ لِلْمُجْتَهِدِ أَنْ يُحَمِّلَ نَفْسَهُ مِنَ التَّكْلِيفِ مَا هُوَ فَوْقَ الْوَسَطِ)[١٣] وهذا ما يستدعيه حال القدوة الحسنة، فَإِنَّهُ يأخذُ من الأعمال والتكاليف الشرعية ويُفْتِي أيضا بِمَا تَقْتَضِيهِ منزلته ومَرْتَبَتُهُ، وأدلَّة مشروعية هذا المسلك وضرورة العمل به في حياة الشخص المقتدَى به كثيرة منها:

الأول: قال الله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[١٤] يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقا كَرِيما * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفا} [الأحزاب: ٣٠-٣١-٣٢].

وجه الاستدلال: دلَّت هذه الآيات الكريمات بشكل واضح صريح على مشروعية مراعاة الفروق الفردية بين المكلَّفين أثناء الاجتهاد وتنزيل الأحكام، وأنَّ المقتدَى به ليس كغيره من عامة الناس؛ لذلك كان حكم نساء النبي صلَّى الله عليه وسلَّم مختلفًا عن حكم بقية النساء في الثواب والعقاب وفي بعض الأحكام، وذلك لما بين الفريقين من فروق، قال الفخر الرازي: فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُؤَثِّرَ عِظَمُ حَالِهِمْ وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِمْ فِي حُصُولِ شَرْطٍ فِي تَكْلِيفِهِمْ دُونَ تَكْلِيفِ غَيْرِهِمْ؟

(٨) يشير بهذا إلى المسألة الفقهية المشهورة، وهي: مَن رأى هلال شوال وحده فلا يفطر، سواءٌ أمِنَ أن يطَّلِع عليه أحدٌ أم لا، وهذا حماية للذريعة لئلا يطلع عليه غيره فيفطر. انظر: القرافي، أحمد بن إدريس، الذخيرة. ٢/ ٤٩٢.

(٩) مقصوده من المرَّة هنا: غسل أعضاء الوضوء مرَّةً مرَّة دون زيادة، وقد نُقِلَ عن الإمام مالك أنه قال في غسل أعضاء الوضوء مرَّة واحدة: لا أحب ذلك إلا من العالِم، يريد بذلك أنَّ غير العالِم لا يحسن الإسباغ، انظر: اللخمي، علي بن محمد الربعي، التبصرة، ١/ ٩).

(١٠) المقرِّي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد، القواعد، تحقيق: أحمد بن عبد الله بن حميد، السعودية: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ص: ٣٠٣.

(١١) سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح. (مكتبة صبيح بمصر)، ٢: ٢٥٥.

(١٢) الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ١: ٥١٦.

(١٣) الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ٥: ٢٧٩.

(١٤) لا بدَّ من التنبيه إلى أنَّ المقصود بالفاحشة المبيِّنة في هذه الآية النشوز وعُقُوقُ الزَّوْجِ وَفَسَادُ عِشْرَتِهِ كما قال ابن عبَّاس، وَلَا يُتوهّم أنها الزنا لِعِصْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَلِأَنَّهُ وَصَفَهَا بِالتَّبْيِينِ والزنا مِمَّا يُتَسَتَّرُ بِهِ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ.

قُلْنَا أَمَا سَمِعْتَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، وَلَقَدْ كَانَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّشْدِيدَاتِ فِي التَّكْلِيفِ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى غَيْرِهِ[١٥]، قال الشوكاني: وَقَدْ ثَبَتَ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ تَضَاعُفَ الشَّرَفِ وَارْتِفَاعَ الدَّرَجَاتِ يُوجِبُ لِصَاحِبِهِ إِذَا عَصَى تَضَاعُفَ الْعُقُوبَاتِ[١٦].

فعلى قَدْرِ عُلُوِّ المقام يكون المَلَام، وبقدر النعمة تكون النقمة إذ كُلَّمَا كَانَتِ النِّعَمُ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ كَانَ كُفْرَانُهَا أَعْظَمَ وَأَقْبَحَ وَلَقَدْ أَجَادَ مَنْ قَالَ:

وَكَبَائِرُ الرَّجُلِ الصَّغِيرِ صَغَائِرُ ** وَصَغَائِرُ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ كَبَائِرُ[١٧]

قال القرطبي: يُضَاعَفُ لَهُنَّ الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ لِشَرَفِ مَنْزِلَتِهِنَّ وَفَضْلِ دَرَجَتِهِنَّ وَتَقَدُّمِهِنَّ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ أَجْمَعَ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَتِ الشَّرِيعَةُ -فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ- أَنَّهُ كُلَّمَا تَضَاعَفَتِ الْحُرُمَاتُ فَهُتِكَتْ تَضَاعَفَتِ الْعُقُوبَاتُ، وَلِذَلِكَ ضُوعِفَ حَدُّ الْحُرِّ عَلَى الْعَبْدِ، والثيب على البكر، وقيل: لما كان أزواج النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ وَفِي مَنْزِلِ أَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، قَوِيَ الْأَمْرُ عَلَيْهِنَّ وَلَزِمَهُنَّ بِسَبَبِ مَكَانَتِهِنَّ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ غَيْرَهُنَّ، فَضُوعِفَ لَهُنَّ الْأَجْرُ وَالْعَذَابُ[١٨].

هذا ولقد ذكر الشيخ الشعراوي وجهًا آخر للفرق بين نساء النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وغيرهنَّ من النساء، فقال: ذلك لأنهنَّ بيتُ النبوة وأمهات المؤمنين، وهنَّ أُسوة لغيرهنَّ من نساء المسلمين، وكلَّما ارتفع مقام الإنسان في مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة لأنه سيكون أُسوةَ فعلٍ فإنْ ضَلَّ فلن يضلّ في ذاته فقط بل سيضلُّ معه غيره[١٩].

الثاني: عَنْ نَافِعِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: عُدْنَا أَبَا وَاقِدٍ الْبَكْرِيَّ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخَفَّ النَّاسِ صَلَاةً عَلَى النَّاسِ، وَأَطْوَلَ النَّاسِ صَلَاةً لِنَفْسِهِ[٢٠].

وجه الاستدلال بالحديث: دلالة هذا الحديث واضحة، إذ كان النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في صلاته لنفسه يأخذ بالعزيمة وهي تطويل الصلاة، وعندما يكون إمامًا بالناس يأخذ بالرخصة وهي التخفيف مع التمام، فقد كان يأخذ بالعزيمة ليتناسب ذلك مع المقام الذي أكرمه الله تعالى به والنِّعَم التي أسبغها عليه، فكان في مرتبة تفوق مرتبة غيره من البشر إذ بوَّأه منصب القدوة الحسنة للبشرية جمعاء، وفي هذا المعنى تروي لنا السيدة عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ[٢١].

الثالث: عن جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ ذِرَاعًا يَحْتَزُّ مِنْهَا، فَدُعِيَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَامَ فَطَرَحَ السِّكِّينَ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ[٢٢].

وجه الاستدلال بالحديث: أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِالْعَزِيمَةِ، فَقَدَّمَ الصَّلَاةَ عَلَى الطَّعَامِ، وَأَمَرَ غَيْرَهُ بِالرُّخْصَةِ وهي تقديم الطعام على الصلاة؛ لِأَنَّ غَيْرَه لَا يَقْوَى عَلَى مُدَافَعَةِ الشَّهْوَةِ قُوَّتَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَأَيُّكُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ؟[٢٣].

(١٥)التفسير الكبير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ٣/ ٤٦٠.
(١٦)فَتْحُ الْقَدِيرِ الْجَامِعُ بَيْنَ فَنَّيِ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ لمحمد بن علي الشوكاني ٤/ ٣١٨.
(١٧)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ٣/ ١٧٩.
(١٨)الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ١٧٤.
(١٩) تفسير الشعراوي الخواطر للشيخ محمد متولِّي الشعراوي ١٤/ ٨٦٩٢.
(٢٠)رواه الإمام أحمد، رقم الحديث (٢١٨٩٩)، والطبراني في الكبير، الحديث (٣٣١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى، (٥٢٧٩).
(٢١)رواه البخاري، الحديث (٤٨٣٧)، ورواه مسلم، الحديث (٢٨٢٠).
(٢٢)رواه البخاري، الحديث (٦٧٥).
(٢٣)ابن حجر العسقلاني، فتح الباري . عناية: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ه)، ٢: ١٦٢.

الرابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ -رضي الله عنه- وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ[٢٤].

وجه الاستدلال بالحديث: أنَّ النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- غضبَ من ردِّ أبي بكر لأنَّه من الخواصّ المقتدَى بهم، وكان الأولى به الأخذ بالعزيمة من الصبر وعدم الانتصار للنفس، وهذا هو الْكَمَالُ الْمُنَاسِبُ لِمَرْتَبَتِهِ مِنَ الصِّدِّيقِيَّةِ، مع أنَّ الأخذ بالرخصة جائز في هذا المقام ولكنه من رتبة العوام، فدلَّ ذلك على أنَّ العمل بالعزيمة هو الأليقُ في حقِّ الخواص الذين يُقتدَى بهم[٢٥]، والأصل في هذا التقسيم قول الله تعالى: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (الشورى: ٤١-٤٢-٤٣).

الخامس: ما رويَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رَأَى عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ثَوْبًا مَصْبُوغًا فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا الثَّوْبِ الْمَصْبُوغِ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ مَدَرٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّكُمْ -أَيُّهَا الرَّهْطُ- أَئِمَّةٌ يَقْتَدِي بِكُمُ النَّاسُ، وَإِنَّ جَاهِلا لَوْ رَأَى هَذَا الثَّوْبَ لَقَالَ: طَلْحَةُ كَانَ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْمَصْبُوغَةَ فِي الإحرام، فَلَا يَلْبَسْ أَحَدٌ مِنْكُمْ -أَيُّهَا الرَّهْطُ- مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمَصْبُوغَةِ شَيْئًا وَهُوَ مُحْرِمٌ[٢٦].

فِي هَذَا الحديث مِنَ الفِقْهِ: قَطْعُ الذَّرَائِعُ التِّي تُلَبِّسُ على النَّاسِ، وذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ يَقْتَدُونَ بِعُلَمَائِهِمْ فِي كُلِّ مَا رَأَوْهُمْ يَصْنَعُونه، فَمَنْ كَانَ إِمَامًا مُقْتَدًى بِهِ لَزِمَهُ مُرَاعَاةُ أَحْوَالِهِ وتَرْكُ مَا يَلْتَبِسُ عَلَى النَّاسِ[٢٧]، قَالَ ابن عبد البر: وَأَمَّا إِنْكَارُ عُمَرَ عَلَى طَلْحَةَ لِبَاسَهُ الْمُصَبَّغَ بِالْمَدَرِ، فَإِنَّمَا كَرِهَهُ مِنْ طَرِيقِ رَفْعِ الشُّبَهَاتِ؛ لِأَنَّهُ صَبْغٌ لَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِهِ، وَإِنَّمَا كَرِهَ أَنْ تَدْخُلَ الدَّاخِلَةُ عَلَى مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ فَظَنَّهُ صَبْغًا فِيهِ طِيبٌ، وَلِلْأَئِمَّةِ الِاجْتِهَادُ فِي قَطْعِ الذَّرَائِعِ[٢٨]، فالْمَنْهِيَّ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ مَا فِيهِ طِيبٌ أَوْ مَا يُشْبِهُهُ لَا الْمَصْبُوغُ مُطْلَقا.

يقول الباجي: الْإِمَامَ الْمُقْتَدَى بِهِ يَلْزَمُهُ أَنْ يَكُفَّ عَنْ بَعْضِ الْمُبَاحِ الْمُشَابِهِ لِلْمَحْظُورِ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ لِئَلَّا يَقْتَدِيَ بِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، وَأَنْ يُلْزِمَ غَيْرَهُ الْكَفَّ عَنْهُ[٢٩]، ويقول الشيخ ملَّا علي القاري: إنَّ فساد العالَمَ لفساد العالِم، فإنَّ العلماء مع رتبة الكمال إذا طلبوا الحلال وقع الجهَّال في الشبهة على كلِّ حال، وإذا وقع المشايخ العِظام في شُبَهِ الطعام وقع العوامُّ كالأنعام في أكل الحرام، وإذا ارتكب المشايخ والعلماء ما حرَّمه الله من بعض الأشياء كفرَ الأغبياء من الأغنياء والفقراء حيث يقولون: لولا لأنه من الحلال لما ارتكبه العلماء وأرباب الأحوال[٣٠].

السادس: رويَ عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ بن أبي وقَّاص أنه قَالَ: كَانَ أَبِي إِذَا صَلَّى فِي الْمَسْجِدِ تَجَوَّزَ وَأَتَمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَإِذَا صَلَّى فِي الْبَيْتِ أَطَالَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ وَالصَّلَاةَ، قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ إِذَا صَلَّيْتَ فِي الْمَسْجِدِ جَوَّزْتَ، وَإِذَا خَلَوْتَ فِي الْبَيْتِ أَطَلْتَ؟ فقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّنَا أَئِمَّةٌ يُقْتَدَى بِنَا[٣١].

وجه الاستدلال بهذا الأثر: أَنَّ سعد بن أبي وقَّاص -رضي الله عنه- أخذ نفسه بالعزيمة وهي تطويل القراءة والقيام في الصلاة، بينما سلك مع الناس طريق الرخصة والتخفيف دون

(٢٤)رواه الإمام أحمد، رقم الحديث (٩٦٢٤)، ورواه أبو داود، كتاب الأدب، بابٌ في الانتصار، رقم الحديث (٤٨٩٦).

(٢٥)القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. (ط١، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ)، ٨: ٣١٨٥.

(٢٦) رواه الإمام مالك في الموطَّأ برواية محمد بن الحسن الشيباني، رقم الأثر (٤٢٥).

(٢٧)القنازعي، تفسير الموطَّأ، ٢: ٦٠٣.

(٢٨)ابن عبد البر الاستذكار. تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١ه)، ٤: ٢٠.

(٢٩)أبو الوليد الباجي، المنتقى شرح الموطأ، (ط١، مصر: مطبعة السعادة، ١٣٣٢ هـ)، ٢: ١٩٧.

(٣٠)مجموع رسائل العلاَّمة الملاَّ علي القاري. تحقيق: مجموعة باحثين، (ط١، اسطنبول: دار اللباب، ١٤٣٧ه)، ٤: ١٨٧.

(٣١)رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم الأثر (٣١٧)، ورجال هذا الحديث رجال الصحيح.

خللٍ في السنن والأركان، وعلَّل سلوكه هذا المنهج بأنه من الأئمّة الذين يقتدِي بهم الناس.

السابع: عَنْ نَافِعٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَعْمَلُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِالشَّيْءِ لَا يَعْمَلُ بِهِ فِي النَّاسِ[٣٢].

الثامن: كَانَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ فَقِيهًا حَتَّى يَتَّقِيَ أَشْيَاءَ لَا يَرَاهَا عَلَى النَّاسِ وَلَا يُفْتِيهِمْ بِهَا[٣٣].

التاسع: قال رويم بن أَحْمَد[٣٤]: مِنْ حِكَمِ الْحَكِيمِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى إِخْوَانِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَيُضَيِّقَ عَلَى نَفْسِهِ فِيهَا؛ فَإِنَّ التَّوْسِعَةَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُ الْعِلْمِ وَالتَّضْيِيقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ حُكْمِ الْوَرَعِ[٣٥] وعلَّقَ محمَّد الخَضِر الشنقيطي[٣٦] على هذا قائلًا: قلت: أدركتُ والدي رحمه الله تعالى جاريًا على هذا السَّنن في عباداته، آخذًا على نفسه بالتضييق، لا يترخَّص في شيءٍ منها بل يعمل دائما بالأشقِّ... ويفتي الناس دائما بما فيه لهم رخصة مخافة أن يتكاسلوا عن العمل بالأشق، فيتركوا العمل رأسًا[٣٧].

العاشر: ومن هذا الباب ما قد يجده الباحث والقارئ في بعض كتب المالكية من استعمالهم لمصطلحي: (مذهب الإمام مالك) و(طريقة الإمام مالك)، وقد فرَّق علماء المالكية بين هذين المصطلحَين من وجوه كثيرة، ذكروا منها:

* مذهب الإمام مالك: المراد به مَا يُفتِي بِهِ، وعادةً ما يكون الأيسر والأسهل على الناس من الرخص الشرعية أو القول الأخفِّ في المسائل التي تتعدَّدُ فيها الأقوال.

* طريقة الإمام مالك: المراد بها مَا يأخذ بِهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ يَلْتَزِمُ بَعْضَ أَشْيَاءَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَيُفْتِي الْغَيْرَ بِخِلَافِهَا؛ من العزيمة والورع[٣٨]، وعمِلَ الإمام مالك بهذا المسلَك في خاصّة نفسه في كثيرٍ من الفروع والأحكام، منها على سبيل المثال:

* الوضوء والاستقاء في جلود الميتة إذا دُبِغَت، فقد كرهه مالك في خاصّة نفسه، ولم يحرّمه على الناس[٣٩].

* ومنها ما رويَ عنه: أنه كَانَ لَا يَرْكَبُ بالمدينة دابةً، وكان يقول: أستحيي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فِيهَا رَسُولُ الله -صلّى الله عليه وسلم- بِحَافِرِ دَابَّةٍ[٤٠].

* ومنها أيضا ما روي عنه: أَنَّه كَانَ لَا يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ إِجْلَالًا لَهُ[٤١] ففي هذه المسائل وغيرها أخذ الإمام مالك -رحمه الله تعالى- في خاصة نفسه من العزيمة والورع والاحتياط ما لا يفتي به عامة الناس، فالْمُشَاقُّ كما ذكر الإمام الشاطبي تختلف بالقوة والضعف وبحسب الْأَحْوَالِ وَبِحَسَبِ قُوَّةِ الْعَزَائِمِ وَضَعْفِهَا، وَبِحَسَبِ الْأَزْمَانِ وَبِحَسَبِ الْأَعْمَالِ[٤٢].

(٣٢)رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه، رقم الأثر (٣٤٦٤٤).

(٣٣)الخطيب البغدادي، الفقيه و المتفقِّه. تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي. (ط٢، السعودية: دار ابن الجوزي،١٤٢١ه)، ٢: ٣٣٩.

(٣٤)رُوَيْم بن أَحْمد بن يزيد، أَبُو مُحَمَّد، من أجلِّ مشايخ الصوفية في بغداد، كَانَ فَقِيهًا مقرئًا، توفي سنة (٣٠٣ه). انظر: طبقات الصوفية. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)، ص (١٤٧).

(٣٥)بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري. (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (١: ٣٠٠).

(٣٦)الشِّنْقِيطي: محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الملقَّب بـــ(ما يأبى) لكرمه وسخائه حيث كان لا يرد سائلا ولا يأبى، و(الجكني) نسبة إلى قبيلة من شنقيط، هاجر إلى المدينة المنورة، فتولى الإفتاء بها، توفي سنة (١٣٥٣ه) انظر: الأعلام للزركلي. (ط١٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م)، ٦: ١١٣).

(٣٧)الشنقيطي، كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحِ البُخَارِي. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥ هـ)، (٢: ٣٨٢).

(٣٨)النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني.(دار الفكر، ١٤١٥هـ)، ١: ٢٤.

(٣٩)الصقلي، الجامع لمسائل المدونة. تحقيق مجموعة باحثين، توزيع دار الفكر، ١٤٣٤ هـ، ١٥: ٤٤.

(٤٠)القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى. (دار الفكر، ١٤٠٩هـ) ٢: ١٢٨.

(٤١)الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢: ٤٤.

(٤٢)الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ١: ٤٨٤.

وهكذا نجد أنَّ الشخص المقتدَى به يأخذ نفسه بالأشد والأثقل على النفس، ويفتي غيره بالأسهل والأيسر، وهذا منهج أصحاب الهمم العالية والعزائم القوية، وعلى هذا المنهج كان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، يَعْمَلُ فِي نَفْسِهِ بِمَا لَا يُلْزِمُهُ النَّاس، وَلَا يُفْتِيهِمْ بِهِ، وَيَقُولُ: لَا يَكُونُ الْعَالِمُ عَالِمًا حَتَّى يَعْمَلَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِمَا لَا يُلْزِمُهُ النَّاسَ وَلَا يُفْتِيهِمْ بِهِ، بِمَا لَوْ تَرَكَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ إِثْمٌ[٤٣].

واليوم بسبب اتباع الهوى وضعف الوازع الديني تمادى وتجرّأ بعض من ينتسب للعلم حتى وصلَ بهم الحدُّ أنْ قلبُوا هذه القاعدة وعَكَسُوا هذا الأصل، فتراهم يتشدّدون في الفتوى مع الناس الضعفاء، ويتساهلون مع أنفسهم أو مع الأغنياء وأصحاب المناصب والجاه، يقول ابن القيّم: وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُفْتِيَ نَفْسَهُ بِالرُّخْصَةِ وَغَيْرَهُ بِالْمَنْعِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ -إذَا كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ قَوْلَانِ قَوْلٌ بِالْجَوَازِ وَقَوْلٌ بِالْمَنْعِ- أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ قَوْلَ الْجَوَازِ وَلِغَيْرِهِ قَوْلَ الْمَنْعِ[٤٤].

* يحكي الباجيُّ عمَّن يثقُ به أنَّهُ اكترى جزءًا من أرض على الإشاعة، ثمَّ إنَّ رجلًا آخر اكترى باقي الأرض، فأراد الأول أن يأخذ بالشفعة وغاب عن البلد، فأفتى المكتري الثاني بإحدى الروايتين عن مالك أنه لا شفعة في الإجارات، قال المكتري الأول: فوردت من سفري فسألت أولئك الفقهاء -وهم أهل حفظ في المسائل وصلاح في الدين عن مسألته- فقالوا: ما علمنا أنها لك، إذا كانت لك المسألة أخذنا لك برواية أشهب عن مالك بالشفعة فيها، فأفتاني جميعهم بالشفعة، فقضى لي بها[٤٥].

المطلب الثالث: عمل القدوات بالعزيمة أسبابُه وتطبيقاتُه

لاحظنا أنَّ لوجوب أخذ القدوات بالعزيمة عدَّةَ أسباب منها:

الأول: أنَّ الشخص المقتدَى به يجتهد في تقديم حقِّ الله تعالى على حقِّ نفسه وتقديم مصالحه الدينية على مصالحه الدنيوية وهذا مقام أصحاب العزيمة القوية والهمَّة العالية، وقد فصَّل الإمام الشاطبي القولَ في بيان وجه هذا الطريق فقال: العَزِيمَةُ فِي هَذَا الْوَجْهِ هُوَ امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْعُمُومِ كَانَتِ الْأَوَامِرُ وُجُوبًا أَوْ نَدْبًا وَالنَّوَاهِي كَرَاهَةً أو تحريمًا، وترك كلِّ مَا يَشْغَلُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُبَاحَاتِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهَا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مِنَ الْآمِرِ مَقْصُودٌ أَنْ يُمْتَثَلَ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَالْإِذْنُ فِي نَيْلِ الْحَظِّ الْمَلْحُوظِ مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ رُخْصَةٌ؛ فَيَدْخُلُ فِي الرُّخْصَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كُلُّ مَا كَانَ تَخْفِيفًا وَتَوْسِعَةً عَلَى الْمُكَلَّفِ؛ فَالْعَزَائِمُ حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَالرُّخَصُ حَظُّ الْعِبَادِ مِنْ لُطْفِ اللهِ، فَتَشْتَرِكُ الْمُبَاحَاتُ مَعَ الرُّخَصِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ مِنْ حَيْثُ كَانَا مَعًا تَوْسِعَةً عَلَى الْعَبْدِ وَرَفْعَ حَرَجٍ عَنْهُ وَإِثْبَاتًا لِحَظِّهِ، وَتَصِيرُ الْمُبَاحَاتُ -عِنْدَ هَذَا النَّظَرِ- تَتَعَارَضُ مَعَ الْمَنْدُوبَاتِ عَلَى الْأَوْقَاتِ؛ فَيُؤْثِرُ حَظَّهُ فِي الْأُخْرَى عَلَى حَظِّهِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ يُؤْثِرُ حَقَّ رَبِّهِ عَلَى حَظِّ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ رَافِعًا لِلْمُبَاحِ مِنْ عَمَلِهِ رَأْسًا أَوْ آخِذًا لَهُ حَقًّا لِرَبِّهِ؛ فَيَصِيرُ حَظُّهُ مُنْدَرِجًا تَابِعًا لِحَقِّ اللهِ، وحق الله هو المقدَّم المقصود؛ فَإِنَّ عَلَى الْعَبْدِ بَذْلَ الْمَجْهُودِ، وَالرَّبُّ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَهَذَا الْوَجْهُ يَعْتَبِرُهُ الْأَوْلِيَاءُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَحْوَالِ، وَيَعْتَبِرُهُ أَيْضًا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ رَقَى عَنِ الْأَحْوَالِ، وَعَلَيْهِ يُرَبُّونَ التَّلَامِيذَ، أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الْأَخْذَ بِعَزَائِمِ الْعِلْمِ وَاجْتِنَابَ الرُّخَصِ جُمْلَةً، حَتَّى آلَ الْحَالُ بِهِمْ أَنْ عَدُّوا أصل الحاجيَّاتِ كُلَّهَا أَوْ جُلَّهَا مِنَ الرُّخَصِ[٤٦].

(٤٣) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقِّه، ٢: ٣٣٩.

(٤٤) ابن القيّم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق محمد إبراهيم، (ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ) ٤: ١٦٢.

(٤٥) الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ٥: ٩٠.

(٤٦) الشاطبي، الموافقات في أصول الفقه، ١: ٤٧٢.

الثاني: قطع الطريق على العامَّة وسدُّ الذريعة أمامهم لما قد يحصل في نفوسهم من الاغترار بفعل القدوات وأخذهم بالرخصة، وربما يتوهّمون أنَّ الأصل في هذه الحالات والمسائل الجواز والمشروعية، فيقتدون بهم دون تمييز وبصيرة، فكان لا بدَّ من سدِّ هذه الذريعة من خلال إيجاب العزيمة عليهم لأنَّ تناولهم للرخصة في هذه الحالة يلحق ضررًا عاما بالأمَّة فالرخصة إنما تباح إذا لم ينشأ عنها مضرة عامة للمسلمين، فإذا تحقق حصولها ولو بغالب الظن فليس له الأخذ بها[٤٧] قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: احذروا زلَّةَ العالِم لأنَّ قدْره عند الناس عظيم، فيتَّبِعُوه على زلَّتِهِ[٤٨].

ومن خلال الاستقراء للفروع والأحكام المتعلِّقة بمَن هم في موضع القدوة نجد أنَّ الأخذ بالعزيمة قد يصبح واجبًا في حقِّهم في بعض الحالات، بل هذا هو الأصل الذي ينبغي مراعاته في سلوكهم الذي يتناسب مع علو مرتبتهم ورفعة شأنهم، لهذا قد يجبُ على الشخص المقتدَى به الأخذ بالعزيمة ويحرُم عليه الأخذ بالرخصة في بعض الحالات، وذلك لعِظَم المصالح المترتبة على أخذه بالعزيمة وفدْحِ المفاسدِ المترتبة على أخذه بالرخصة، وهذا ملحَظٌ مهم ينبغي أن يكون حاضرًا في ذهنِ الشخص المقتدَى به، وأسوق المسائل التالية للدلالة على هذه الحالة:

المسألة الأولى:

الإكراه على التلفُّظ بكلمة الكفر

قال الإمام النووي: لو أكْرَهَ الكفارُ مُسلمًا على كلمة الكفر، فقالها وقلبه مطمئنّ بالإيمان، لم يكفر بنصّ القرآن لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} (النحل:١٠٦) وإجماع المسلمين، وهل الأفضل أن يتكلَّم بها ليصونَ نفسَهُ من القتل؟ فيه خمسةُ أوجهٍ لأصحابنا:

الأول: الصحيحُ أن الأفضلَ أن يصبرَ للقتل ولا يتكلّم بالكفر ودلائلُهُ من الأحاديث الصحيحة وفعل الصحابة رضي الله عنهم مشهورةٌ.

والثاني: الأفضلُ أن يتكلَّمَ ليصونَ نفسَه من القتل.

والثالث: إن كان في بقائه مصلحةٌ للمسلمين بأن كان يرجو النكايةَ في العدوِّ أو القيام بأحكام الشرع، فالأفضلُ أن يتكلَّم بها، وإن لم يكن كذلك فالصبرُ على القتل أفضلُ.

والرابعُ: إن كان من العلماء ونحوهم ممّن يُقتدى بهم فالأفضلُ الصبر لئلا يغترَّ به العَوَامُّ.

والخامسُ: أنه يجبُ عليه التكلُّم؛ لقول الله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة:١٩٥) وهذا الوجهُ ضعيفٌ جدا[٤٩].

فإذا كان المكرَهُ على الكفر قدوةً للناس حيث يقتدِي به العوام ويتبعونه في تصرفاته وأقواله، فالحكم أنه يَحرُمُ عليه الأخذ الرخصة دفعًا للفساد، والمآل الذي يؤول إليه أمر العوام؛ إذ قد يؤدِّي تصرُّفه ذلك إلى فتنتهم في عقيدتهم، لا سيما من ذوي الجهالة ممن لا يُمَيِّزُ حَالَ عُذْرِهِ من غَيْرِهِ، يقول أبو جَعْفَرٍ الأَنْبَارِيّ[٥٠]: لَمَّا حُمِلَ أَحْمَدُ بن حنبل إِلَى المَأْمُوْنِ أُخبرتُ، فَعَبَرْتُ الفُرَاتَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الخَانِ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ تَعَنَّيْتَ، فَقُلْتُ: يَا هَذَا، أَنْتَ اليَوْمَ رَأْسٌ، وَالنَّاسُ يَقتَدُوْنَ بِكَ، فَوَاللهِ لَئِنْ أَجبتَ إِلَى خَلقِ القُرْآنِ لَيُجِيْبَنَّ خَلقٌ كثير، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُجِبْ لَيَمْتَنِعَنَّ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيْرٌ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الرَّجُلَ إِنْ لَمْ يَقْتُلْكَ فَإِنَّك تَمُوتُ، لاَ بُدَّ مِنَ المَوْتِ، فَاتَّقِ اللهَ وَلاَ تُجِبْ، فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَبْكِي، وَيَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أَعِدْ عَلَيَّ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ[٥١]. ومثله ما روي عن مُحَمَّدِ بنِ نُوْحٍ[٥٢] الذي امتُحِن

(٤٧)عبد القادر بن ملاَّ حويش، بيان المعاني. (ط١، دمشق: مطبعة الترقي، ١٣٨٢ه، ١٩٦٥)، ٥: ٣٣٢.

(٤٨)الغزالي، إحياء علوم الدين، ١: ٦٤.

(٤٩)النووي، الأذكار. تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ)، ص ٥٦٨.

(٥٠)محمد بن عبد الله، أبو جعفر الحذاء الأنباري، سمع من الفضيل بن عياض وسفيان بْن عُيَيْنَة وشعيب بن حرب، وروى عنه أحمد بن حنبل. انظر: تاريخ بغداد. تحقيق: د بشار معروف، (ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٢ه)، ٣: ٤١٤].

(٥١)الذهبي، سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرنؤوط، (ط٣،بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٠٥هـ)،١١: ٢٣٩.

(٥٢) مُحَمَّد بن نوح بن مَيْمُون بن عبد الحميد بن أبي الرِّجَال الْعجلِيّ، صَاحب الإِمَام أَحْمد، يُعرف وَالِده بالمضروب، كَانَ عَالما زاهدًا ورعًا، توفي سنة (٢١٨هـ). انظر: [تاريخ بغداد، ٤: ٥١٧].

بالْقَوْل بِخلق الْقُرْآن فَثَبت على السّنة، فقد حمله الْمُأْمُون وَمَعَهُ أَحْمد بن حَنْبَل إِلَى الرقة على بعيرٍ متزاملين فَمَرض مُحَمَّد بن نوح فِي الطَّرِيق، فأوصى الإمام أَحْمَد بهذه الوصية: يَا أَبَا عَبْدِ الله، اللهَ اللهَ، إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَى بِكَ، قَدْ مَدَّ الخَلْقُ أعناقَهُم إِلَيْكَ لِمَا يَكُوْنُ مِنْكَ، فَاتَّقِ اللهَ وَاثبُتْ لأمرِ الله، أَوْ نَحْوَ هَذَا[٥٣].

فإذا أُكرِهَ العالم المقتدَى به في موطن تحتاج الأمة فيه إلى أنْ يُظهِرَ الحق إما لخفاء هذا الحقِّ أو لالتباسه على الأمة، وجَب على هذا العالم أن يبيِّن الحق ولا يكتمه؛ لأنَّ مصلحة الأمة أولى من المصلحة الخاصة للعالم بحفظ النفس، ولأن الضرر المترتِّب على اتباع الأمة له على الباطل أشدُّ من الضرر الذي يلحقه في نفسه إن أخذ بالرخصة وترك العزيمة بإظهار الحق، وهذا من الصبر الواجب ومن الجهاد في سبيل الله عز وجل.

المسألة الثانية:

البيعة لخليفتين في زمنٍ واحد:

من الشواهد على مراعاة هذا الأمر النظر إلى مآلات تصرفات القدوة الحسنة وكيفية تفسيرها من العوام، رويَ عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيّبِ أَنَّه دُعِيَ لِلْبَيْعَةِ لِلْوَلِيدِ وَسُلَيْمَانَ بَعْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: لَا أُبَايِعُ اثْنَيْنِ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَقِيلَ لَه: ادْخُلْ مِنَ الْبَابِ وَاخْرُجْ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ، فقَالَ: وَاللهِ لَا يَقْتَدِي بِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَجُلِدَ مِائَةً وَأُلْبِسَ الْمُسُوحَ بسبب رفضه ذلك[٥٤].

فمن المقرّر في أحكام الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز عقد البيعة لخليفتين في زمن واحد؛ فرفض سعيد بن المسيّب دخول باب القصر والخروج من الباب الآخر لئلا يَتوهّم العوام أنه قد بايع الخليفتين في وقت واحد، فيقتدوا به في فعله؛ إذ إنه عندهم موضع قدوة، فرأى بموجب اجتهاده الفقهي أنه من الواجب عليه قطع هذه الذريعة وتحمُّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

المسألة الثالثة:

مؤاكلة صاحب البدعة

ورويَ عن الْفُضَيْل بن عياض أَنَّه قال: لَأَنْ آكُلَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آكُلَ عِنْدَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ، فَإِنِّي إِذَا أَكَلْتُ عِنْدَهُمَا لَا يُقْتَدَى بِي، وَإِذَا أَكَلْتُ عِنْدَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ اقْتَدَى بِي النَّاسُ[٥٥]، فالعوام يعلمون أنَّ أكله عند اليهودي والنصراني لا يعني ذلك إقراره لهم على ديانتهم ورضاه بها، ولكن إذا أكل عند صاحب البدعة فقد يظنّ الناس أنّه يقرُّه على بدعته ويرضى بها بدليل مؤاكلته، ومن ثمَّ يقتدون به في فعله، ويستسيغون البدعة من هذا الرجل ويؤمنون بها بدل أن ينكروها؛ فمراعاةً لهذا الأمر وسدًّا لهذه الذريعة أعلن الفضيل بن عياض امتناعه عن مؤاكلة صاحب البدعة، وهكذا نجد أنَّ الأخذ بالعزيمة قد يصبح واجبًا في بعض الأحوال للأسباب آنفة الذكر، ولدى الاستقراء نجد أنَّ النظام الإسلامي رسم المنهج ووضع الأصل في أخذ الشخص المقتدَى به بالعزيمة والرخصة، وهذا المنهج يلحظ المأخذ التالي:

١- مَن هم في موضع القدوة فتكليفُهم الأصلي قائم على الأخذ بالعزيمة.

٢- ومَن هم في موضع الاقتداء من العوامِّ فتكليفُهم الأصلي قائم على الأخذ بالرخصة.

وفي ذلك رعاية لحالِ كلا الفريقين؛ فلا يصح أن يُعكس هذا النظام بأنْ يكون الأمر واجبًا على العوام مندوبًا للمقتدَى بهم، فيصيرَ العامي آخذًا بالعزيمة والمقتدَى به آخذًا بالرخصة بعكس النظام الذي رعاه التشريع الإسلامي في تكاليفه وأحكامه. والله تعالى أسأل أن يلهمنا الرشد والسداد والصواب في أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا، وأن يكرمنا بالإخلاص والقبول، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١: ٢٤٢.

(٥٤) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ)، ٢: ١٧٠.

(٥٥) المصدر السابق، ٨: ١٠٣.

بديع الزمان سعيد النورسي

عالما ومفكرا وقائدا

د. حسين عبد الهادي آل بكر

التحديات التي واجهت أمتنا منذ القرن الرابع الهجري كبيرة وعميقة، فقد أدت إلى إسقاطِ الخلافةِ وعاصمتِها السياسيةِ إسطنبول وعاصمتِها العلميةِ القاهرةِ، ولم تكن الاستجابة في البداية بمستوى تلك التحديات، فعادت نتيجة الصراع على أمتنا بالخسارة؛ لأن قوى الغزو العالمي والثقافي والفكري والسياسي تمكنت من الأمة حتى كادت تستسلم عقيدةً وشريعةً وسلوكًا لولا امتلاكها قواعد انطلاقٍ قوية في الأعماق تجدد أصالتها وتحتفظ دائمًا ببذور اليقظة والمقاومة، فأمتنا قد تضعف لكنها لا تستسلم ولا تموت لأنها أمة القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

إن الانطلاق من القرآن الكريم والسنة النبوية رسم لأمتنا أسس الحركة والتغيير التي دفعت الأمة إلى المقاومة حتى تخلصت من الاحتلال العسكري، وهي الآن في طريقها إلى التحرر من الغزو الفكري والثقافي والسياسي والاقتصادي بعد أن جددت لها المفاهيمَ صحوةٌ إسلاميةٌ عصرية مباركة، وفي خضم المآسي الدامية والصراع الحضاري بين الأمم ينبعث رجال عظماء وعلماء ربانيون ومفكرون فطاحل، يُصنَع كل منهم على عين العناية الإلهية ليمسكوا بناصية أمتهم ويحولوا بينها وبين السقوط الحضاري؛ من هؤلاء العلماء الربانيين والمفكرين العظماء والمجاهدين بالسيف والقلم بديع الزمان سعيد النُّورْسي، فهو من تحمل مسؤولية النهوض بالأمة وتجديد الحياة بالإيمان الراكد في القلوب والتصدي لتيار جارف كاد يسلخ الأمة من عقيدتها ودينها وأخلاقها وقيمها وتاريخها، وقد أيقن النورسي منذ البداية أن الغرب مقدم على هجوم كبير على الأمة تحت راية الحداثة والتنوير والحرية والديمقراطية؛ فكان لا بد من تجديد الإيمان في القلوب ورفع مستوى الوعي في العقول والاستقامة في السلوك لمواجهة هذه الهجمة الشرسة في مرحلة التأخر والتشرذم والخواء الإيماني التي تمر بها الأمة.

لقد أدرك بديع الزمان أن الإسلام في خطر إيمانًا وعقيدةً وشريعةً وأخلاقًا وقيمًا وحضارةً، فقرر المواجهة، ولكن كيف؟

المطلع على رسائل النور -وهي تراث النُّورْسي في الدعوة والفكر والتجديد- يصل إلى قناعة أنه كان برسائله مجددًا للعَرْض الإسلامي وفق مقتضيات العصر، وأنه استطاع أن يقود الرَّكْبَ بحكمة وعقل ومنطق، فتجنَّب خلافات العلماء والطرق الصوفية، وكانت معركته موجهة إلى الخارج وسياسة الداخل، فالناس عنده فئتان متقابلتان خندقُ الإسلام وخندقُ

أعدائه، فقد أيقن أنه لا يمكن المواجهة بجبهة متفرقة، وهو إنما ظهر في هذا المنعطف الخطير من حياة الأمة ليحمل همومها ويقف في الميدان عالِمًا ومفكرًا وقائدًا ومجاهدًا يقوم بأعباء رسالة نذَر لها نفسه وحياته، فرسائل النور بحر لا ساحل له جمعت ثلاثة تفاسير؛ تفسير الكتاب المسطور، والكتاب المنظور في الكون وآيات الأنفس والآفاق، والقرآن الناطق الذي تجلى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا بد لرسائل النورسي وتراثه العلمي والفكري والسلوكي من دراسات متنوعة حول تجديدها الإسلامي وأسلوبها التربوي وعمقها الفكري، فأتى هذا البحث على جوانب عدة من حياة الشيخ النورسي، شملت نشأته وتعلُّمه وأسفاره ومدارسه وسجنه ومنهجه في مجموعة من قضايا الدين والحياة والعلم، وتحدَّثتْ عن أثر ذلك في طلابه وتلامذته.

مولده ونشأته

ولد النُّورسي في قرية نُورْس في ولاية بتليس شرق تركيا سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٧م، لغته الأم الكردية، وأجاد التركية لغة الخلافة العثمانية، توجه في بداية حياته إلى الكتاتيب في منطقته، وكان متميزًا بين أقرانه صاحب ذكاء خارق قوي الحافظة، وتنقل بين عدة مدارس في المنطقة لأنها لم تكن تلبي رغباته، وكان يناقش العلماء وهو طالب، فسموه سعيد المشهور، حفظ كتاب جمع الجوامع في أصول الفقه لابن السبكي خلال أسبوع، وألفية مالك وكتاب الجاحي[١] في مدة قليلة، وفي مدينة بتليس حفظ القاموس المحيط للفيروز آبادي حتى باب السين، وحفظ كتبًا أخرى عن ظهر قلب، ولذكائه الخارق ذاعت شهرته فأطلق عليه لقب بديع الزمان، ولم يكتف بالعلوم الدينية والعربية بل طالَع الكتب العلمية كالفلك والجيولوجيا والرياضيات والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافيا حتى أفحمَ أساتذتها المتخصصين[٢].

(١) آخر سلسلة كتب النحو المقررة في تلك المدارس.

(٢) إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان سعيد النورسي، ص٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢.

(٤) هو أول صهيوني ماسوني عمل على قلب الخلافة وخلع السلطان عبد الحميد.

(٥) المرجع السابق ص٢٢.

محطات في حياة الأستاذ النورسي

زيارة إسطنبول

وصل إلى إسطنبول سنة ١٩٠٧م، وسكن في منطقة الفاتح وعلق على باب غرفته لوحة كتب عليها: (هنا يجاب عن كل سؤال، وتحل كل مشكلة دون أن يسأل هو أحدا من الناس) كان هذا إعلانًا غريبًا وادعاءً مثيرًا زاد شهرته ورغب كثيرون بلقائه، وتوالى عليه ثناء العلماء الذين زاروه، قال العلامة حسن أفندي: (لم أشاهد مثله أبدًا، إنه من نوادر الخلق).

في إسطنبول قدَّم النورسي عريضةً إلى السلطان يطلب فيها فتح مدارس للعلوم الحديثة مع العلوم الدينية في شرق تركيا حيث يخيم الجهل والفقر على السكان، وانتقد حاشية السلطان ونظام الأمن والاستخبارات في قصر يلدز؛ فأثار حاشية السلطان فأحالوه إلى المستشفى لفحص قواه العقلية، وأصدرت لجنة الأطباء قرارًا بوضعه في مستشفى طوب باش للمجاذيب وعندما فحصه أحد الأطباء كتب في تقريره ما يلي: (لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد)[٣].

في سلانيك

سافر إلى سلانيك وعرَف كبار شخصيات الاتحاد والترقي ولكونه شخصًا يدعو إلى الحرية والشورى الإسلامية رحَّبَ به قادة الاتحاد والترقي، لكنهم لم يستطيعوا التأثير عليه ولا جعْلَه تابعًا لهم، فبقي مستقل الفكر والشخصية، وهناك طلب اليهودي المشهور عمانوئيل قرصو[٤] رئيس المحفل الماسوني وعضو مجلس النواب العثماني مقابلته طمعًا في التأثير عليه فقابلَه لكن ما لبث أن خرج اليهودي من عنده قائلًا: (لقد كاد هذا الرجل العجيب يزجني بحديثه في الإسلام)[٥].

في أول محكمة عرفية

في الجو المتوتر المشحون ضد جمعية الاتحاد والترقي وقعت حادثة ٣١ آذار ١٣٢٥ه الموافق ١٣ نيسان ١٩٠٩م في ساحة السلطان أحمد: نشب عصيان بين أفراد الطابور العسكري الذي أرسله الاتحاديون من مدينة سلانيك إلى إسطنبول لحماية المشروطية، فثار الجنود وأعلنوا العصيان وطالبوا بتطبيق الشريعة، وانتهت الحادثة بوصول جيش الحركة إلى إسطنبول في ٢٣ نيسان ١٩٠٩م، فسيطرت وعزل السلطان عبد الحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م، وأُعلِنت الأحكام العرفية، وشُكِّلت محكمة عسكرية لمحاكمة المسؤولين عن العصيان، وكان الشيخ النورسي ممن قدموا إلى أعواد المشانق في تلك المحكمة العسكرية، وبدأ القاضي العسكري خورشيد باشا بمحاكمة النورسي في المحكمة أمام منظر خمسة عشر معدمًا في الساحة كان النورسي يشاهدهم من النافذة، فقال له: وأنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يطالب بها يعدم هكذا مشيرا بيده إلى المعدمين في الساحة، فقام النورسي وألقى على سمع المحكمة كلامًا رائعًا نقتطف منه ما يأتي:

(إنني طالب شريعة؛ لذا أرى كل شيء بميزان الشريعة، فالإسلام وحده هو ملتي، خطابي ليس موجهًا إليكم وحدكم وإنما أوجهه إلى بني الإنسان كلهم في هذا العصر، فلقد انبعثت الحقائق من قبر القلب عارية مجردة بسر الآية الكريمة يوم تبلى السرائر، فمن كان أجنبيا غير محرم فلا ينظر إليها، إنني متهيئ بكل شوق للذهاب إلى الآخرة ومستعد للرحيل إليها مع هؤلاء المعلقين على المشانق، لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد إلا أنها الآن تحارب الحياة بأكملها، فإذا كانت الحياة على هذا الشكل فليعش الجنون وليعش الموت ولتعش جهنم مثوى للظالمين، لقد كنت آمل أن يُهيَّأ لي موضع لأبيِّن فيه أفكاري، وها قد أصبحت هذه المحكمة العرفية خير مكان لأبث فيها أفكاري وأقول لكم: لو كان لي ألف روح لكنت مستعدًا لأن أضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة؛ إذ الشريعة سبب السعادة، وهي العدالة المحضة وهي الفضيلة)[٦].

النورسي مجاهدًا وأسيرًا

كان الأستاذ سعيد النورسي معارضًا لدخول الدولة العثمانية في الحرب، لكن عندما اندلعت أسرع إلى جبهة القتال وشارك في فنون الجهاد، وشكل من طلابه ومن المتطوعين فرقًا للجهاد والدفاع عن البلاد ضد الغزو الروسي والعصابات الأرمنية، كانت روسيا تحاول الاندفاع نحو الأناضول، وفي ١٦ شباط ١٩١٦م دخلت الجيوش الروسية مدينة أرض روم وكان الأستاذ النورسي مع طلابه يقاتلون الجيش الغازي بكل بسالة، وعندما دخل الجيش الروسي بتليس كان هو وطلابه يدافعون عن المدينة في قتالٍ شديدٍ في شوارع المدينة إلا أن القوة الروسية كانت متفوقة على القوة الصغيرة المدافعة عن المدينة، وخلال المعركة جرح النورسي جرحًا بليغًا، وأسره الروس وأرسل إلى أحد معسكرات الأسر في قوصترمة شرق روسيا[٧] وفي أحد الأيام عُرِض على محكمة عسكرية لأنه لم يقم احترامًا للضابط نيفولافيج في زيارته للأسرى، فأصدرت المحكمة قرار الإعدام بموجب إهانته القيصر والجيش الروسي، فطلب من أحد الضباط أن يسمح له بخمسة عشر دقيقة فقط ليتوضأ ويصلي، وفي هذه الأثناء حضر الضابط نيفولافيج وقال له: أرجو منك المعذرة؛ كنت أظن أنك لم تقم لي بقصد الإهانة فاتخذت الإجراءات القانونية بحقكم، ولكن الآن أدركت أنكم تستلهمون هذا العمل من إيمانكم، وتنفذون ما تأمركم به عقيدتكم؛ لذا ألغيت قرار الحكم بحقكم[٨] ثم هربَ من الأسر مارًّا بوارسو وفيينا حتى وصل إلى إسطنبول[٩].

(٦) بديع الزمان سعيد النورسي، ص٢٧.
(٧) سيرة ذاتية، ص١٢٢.
(٨) الشعاعات، ص٥٧١.
(٩) اللمعات، ص٣٥٩.

في دار الحكمة الإسلامية

بعد وصوله إلى إسطنبول من الأسر عُيِّن عضوًا في دار الحكمة الإسلامية، وكان من أعضائها الشاعر المعروف محمد عاكف والعالم إسماعيل حقي والمفسر حمدي يازر وشيخ الإسلام مصطفى صبري وغيرهم، لكن الشيخ لم يشارك في اجتماعات دار الحكمة لحاجته إلى الراحة بعد ما قاساه من عناء أيام الأسر، وعندما تكرر غيابه أرسل طلبًا يرجو فيه إعفاءه من هذه العضوية، وفي هذه الفترة كانت الحكومة قد خصصت له مرتبًا، لكنه لم يأخذ منه سوى ما يقيم به أَوَده وطبع بباقيه بعض الرسائل لتوزَّع مجانًا على المسلمين، وقال لابن أخيه عبد الرحمن: يا ابن أخي، الحكومة أعطتنا مرتبًا كبيرًا، وليس لي الآن أن آخذ منه إلا كفاف النفس، وما زاد فعليك أن ترده إلى بيت المال.

هكذا يكون العالم قدوة للناس بالعمل لا بالمظهر والقول فقط، فقد قضى عمره كله هكذا نصفه شبعان ونصفه جائع؛ إذ كان يتناول في اليوم طبقًا صغيرًا من الحَساء مع كسرات من الخبز، وكان شعاره الذي طبقه على نفسه أن لا يأخذ شيئا من أحد بدون مقابل[١٠].

في قلب المحنة

توالت المصائب على الدولة العثمانية، وتدخلت جيوش الاحتلال في تركيا، وعقدت معاهدة سيفر، فأحس النُّورْسي بهذه الطعنات وكأنها موجهة إلى قلبه، يقول: (لقد كنت أحس بأن هذه الضربات التي وجهت إلى العالم الإسلامي كأنها وجهت إلى أعماق قلبي)[١١]، واحتلت قوات الاحتلال البريطاني إسطنبول في ١٦ آذار ١٩٢٠، فألف بديع الزمان كتابه الخطوات الست، وأخذ ينشره سرًّا بمساعدة طلابه وأصدقائه، هاجم فيه الإنجليز بلهجة قوية رادعة، ودحض الشبهات التي أثيرت آنذاك ببراهين قاطعة مفنِّدًا حججهم، ولفَت أنظار المسلمين إلى أطماعهم، وحارب اليأس الذي تسلط على كثير من النفوس ورفع العزائم[١٢].

وفي سلسلة المؤامرات على الإسلام وجه الإنجليز عن طريق كنيسة إنجليجان ستة أسئلة إلى المشيخة الإسلامية لتجيب عنها بست مئة كلمة، فوجهت المشيخة هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، وكان جوابه: (إن هذه الأسئلة لا يجاب عنها بست مئة كلمة ولا بست كلمات ولا بكلمة واحدة بل ببصقة واحدة على الوجه الصفيق الإنجليزي اللعين)[١٣]. وبدأت حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي في الأناضول، فأصدر شيخ الإسلام عبد الله أفندي تحت ضغط المحتلين الإنجليز فتوى ضد حركة المقاومة والقائمين عليها، ولكن سرعان ما قام ستة وسبعون مفتيًا ومعهم ستة وثلاثون عالِمًا وأحد عشر نائبًا بإصدار فتاوى مضادة، فأيدوا الحركة وشجعوا على قتال المحتلين، وكان بديع الزمان أحد هؤلاء العلماء، يقول: (إن فتوى تصدر عن مشيخة وإدارة تحت ضغط الإنجليز لا بد أن تكون غير سليمة، ولا يجوز الانصياع لها ذلك؛ لأن الذين قاموا بمقاومة المحتلين لا يمكن اعتبارهم عصاة، لذا يجب سحب هذه الفتوى)[١٤].

في هذه الفترة دعا مصطفى كمال الأستاذ النُّورْسي إلى أنقرة فسافر إليها سنة ١٩٢٢م، واستقبل في المحطة استقبالًا حافلًا لكنه صدم عندما وجد معظم النواب لا يؤدون الصلاة، فقرر أن يكتب هذا البيان إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام مستهلًّا بقوله: (يا أيها المبعوثون... إنكم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ. ولم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان، فاستدعى النورسي وحدثت بينهما مشادة، وكان مما قاله مصطفى كمال: لاريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك، لكن أول عمل قمت به هو الحديث عن الصلاة، فبثثت الفرقة بين المبعوثين، فأجابه النورسي مشيرًا إليه بأصبعه باشا باشا، إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة، إن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود)[١٥].

(١٠) سيرة ذاتية، ص١٣٥.
(١١) سيرة ذاتية، ص١٣٧.
(١٢) بديع الزمان النورسي، ص٣٦ نقلا عن نجم الدين شاهين أر، ص٢١٢.
(١٣) سيرة ذاتية ص١٤٥.
(١٤) بديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٧، نقلا عن نجم شاهين أر، ص٢١٠.
(١٥) السيرة الذاتية، ص ١٤٢، ١٨٦.

فكر مصطفى كمال بإبعاده عن أنقرة لتعيينه واعظًا للولايات الشرقية بمرتب مغرٍ، لكن الأستاذ النورسي رفض هذا الطلب، وغادر إلى مدينة وان بعد أن لمس عن قربٍ نيات خفية سيئة يكنها للإسلام كثير من المسؤولين، وفي هذه الأثناء نشبت ثورة في شرق تركيا بقيادة الشيخ سعيد بيران وكانت هذه الثورة موجهة ضد سياسة الكماليين المعادية للدين، فرفض الأستاذ النورسي المشاركة فيها؛ لأنه لم يكن يثق بالوعي الإسلامي للناس الذين سيشتركون فيها ومدى قدرتهم على فهم الإسلام وتطبيقه، لكن موقفه هذا لم يُنجه من غضب حكومة أنقرة، فأرسلت مفرزة اعتقلته في مدينة وان سنة ١٩٢٥م، ونُقِل إلى إسطنبول ثم صدر الأمر بنقله إلى مدينة (بوردو) ومن ثَمَّ إلى مدينة (إسبارطة) ثم إلى مدينة (بارلا)، فوصل إليها في شتاء سنة ١٩٢٦م، وقضى الليلة الأولى في مخفر الشرطة، ثم خصص لإقامته بيت صغير يتكون من غرفتين.

في هذه الفترة كانت تركيا تعيش حالة من الاستبداد والطغيان والعداء الصريح للدين باسم التمدن والتحضر، واستمرت هذه الفترة مدة ربع قرن حتى سنة ١٩٥٠م يوم جاء عدنان مندريس إلى الحكم بالانتخابات، كان الهدف هو قطع صلة الشعب التركي بإسلامه جذريًّا من خلال تجفيف الينابيع التي تغذي روحه وعقله، فمنعوا تدريس الدين وبدلوا الحروف اللاتينية بالعربية، وأعلنوا علمانية الدولة، وشكلوا محاكم تبث الخوف والإرهاب في البلاد، فنصبت مشانق للعلماء ولكل من تحدثه نفسه بالاعتراض على السلطة الحاكمة، فاعتُقل الأستاذ النورسي ونفي إلى مدينة (بارلا) لكي يجمد فكره ويقل تأثيره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفياض، لكن شاء الله أن تكون هذه البلدة مصدر إشعاع إسلامي أضاء فيما بعد أرجاء تركيا[١٦]، فقضى النُّورْسي فيها ثماني سنوات ونصفًا في الإقام الجبرية، ألف فيها معظم رسائله، فكانت هاتان الغرفتان (أول مدرسة ثورية)، ويصف النورسي عزلته وغربته فيقول: (حينما كنت في منفاي في ذلك الأسر بقيت وحدي منفردًا منعزلًا عن الناس على قمة جبل (جام) المطلة على مراعي بارلا، وكنت أبحث عن النور في تلك العزلة).

كان أهالي بارلا يرون هذا العالم وهو يخرج من سكنه متوجهًا إلى الجبل أو عائدًا، فلا يجرؤ أحد أن يكلمه؛ فهو شخص غير مرغوب لدى السلطة ومراقب، فلم الدخول في مشكلات؟ لكن في أحد الأيام وهو راجع من الجبل سقطت الأمطار بغزارة، فتخرَّق حذاؤه، فدخل المدينة وهو يحمل حذاءه بيده ويغوص في الطين بجواربه الصوفية البيضاء، وكان هناك بالقرب من نبع الماء جمع من الأهالي شاهدوا هذا المنظر المؤثر منظر العالم الجليل المهيب المنفي عن موطنه، فانطلق شخص اسمه سليمان نحوه، وأخذ الحذاء من يده ونظفه، ثم رافقه إلى سكنه وصعد معه إلى غرفته، كانت هذه بداية التعارف، ظل سليمان تلميذًا وفيًّا للأستاذ يساعده ويعاونه ويتتلمذ على يديه ثماني سنوات، وكان هو أول حلقة بينه وبين الآخرين، وبدأت حلقات التلاميذ تتسع شيئًا فشيئًا، وبدأ الأستاذ بنشر رسائله باسم (رسائل النور) سرًّا، ثم يستنسخها تلاميذه لنشرها في كل أرجاء تركيا متحملين تبعات هذا العمل من اعتقال ومطاردة وتعذيب[١٧].

قرر النورسي مواجهة الزلزال الكبير، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية وبأقلام المنافقين والمتزلفين والمتسلقين من الكتاب والصحفيين، وقد كممت فيه أفواه المصلحين وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم؛ لذلك مُنِيت أسس الإسلام وأصوله بالشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذين لم يكونوا يجدون أمامهم مرشدًا أو موجهًا، فقرر النُّورْسي أن يحمل الأمانة الكبرى على كاهله لقضية إنقاذ الإيمان، فهي مسألة لا تحتمل التأجيل والتسويف؛ لذلك نرى مِن أولى الرسائل التي ألفها رسالة (الحشر)، فالبعث ويوم القيامة أو يوم الحشر في نظر العلمانيين خرافة لا سند لها من دليل عقلي أو علمي.

لم يكن لدى النورسي أي كتب أو مصادر يرجع إليها أثناء التأليف سوى القرآن الكريم، وقد ساعده على ذلك ما وهبه الله من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة على الحفظ، وكانت الحروف اللاتينية قد استبدلت بالعربية التي حظر الطبع

(١٦) بديع الزمان سعيد النورسي، ص٤٥.
(١٧) سيرة ذاتية ص٢٥٩.

والنشر بها، وأُغلقت مطابعها، فكانت طريقة الاستنساخ باليد سرًّا هي الطريقة الوحيدة العملية لنشر رسائل النور لرجل غريب منفي مراقب، فبدأت الأيدي تتداول هذه الرسائل سرًّا وتتدارسها، وتهرب بها إلى المدن والقرى البعيدة، فبدأت تكسب قلوبًا جديدة وأرواحًا عطشى إلى الهداية والنور في تلك الصحراء المحرقة المظلمة الحالكة، وأخذت الحكومة تطارد طلبة النور وتداهم منازلهم وتفتشها، فتقبلوا هذه المضايقات بصدر رحبٍ، فالسجن هو أقل ما يمكن أن يدفعوه من ضريبة الإيمان وهو ليس سوى مدرسة يوسفية وأسهمت النساء في هذه الحملة إسهامًا فعالًا، فأتت بعض النسوة إلى الأستاذ وقلن له: يا أستاذنا، إننا لكي نشارك في خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال اليومية لأزواجنا ليتفرغوا كليًّا لكتابة رسائل النور[١٨]، وبقيت رسائل النور عشرين سنة تنتشر بهذه الطريقة، ولم تطبع كاملةً في المطابع إلا سنة ١٩٥٦م.

المدارس اليوسفية

المدرسة اليوسفية الأولى

بعد نقل الأستاذ النورسي إلى مدينة إسبارطة عام ١٩٣٤م اعتُقِل مع مئة وعشرين من طلابه، وسيقوا جميعًا إلى سجن (أسكي شهير) بتهمة تشكيل جمعية سرية تعادي نظام الحكم وتسعى لتغييره، وُضِع الأستاذ في حبسٍ انفراديٍّ مع مضايقات كثيرة تهدف للتأثير على روحه المعنوية، لكن رغم ذلك كان الأستاذ مستمرًّا في تأليف رسائل النور، ولم يسفر التحقيق معه ومع طلابه عن شيء من الإدانة إلا أن المحكمة حكمت عليه بالسجن أحد عشر شهرًا بسبب رسالة الحجاب، وبعد أن قضى الحكم في سجن أسكي شهير نُفي إلى مدينة قسطموني عام ١٩٣٦م، فقضى في مخفر الشرطة ثلاثة أشهر، ثم نُقل إلى بيت صغير أمام مخفر الشرطة حتى يكون تحت المراقبة الدائمة، قضى الأستاذ في هذا المنفى سبع سنين استمر خلالها في تأليف رسائله ومراسلة طلابه بشتى الوسائل، فكانت رسائله تنقل سرًّا ثم تستنسخ باليد ثم توزع على النواحي والقرى والمدن، بهذه الطريقة استنسخت ست مئة ألف نسخة، وانتشرت في أنحاء تركيا كلها.

كانت الحركة النورسية في توسع دائم ونشاط مستمر، ففشلت كل التدابير الحكومية في بناء سد يُعيق هذه الحركة أو يُوقف تقدمها، لكنها استمرت في إلصاق التهم بها، ففي ٣١ آب ١٩٤٣م داهمت الشرطة بيته بحثًا عن أدلة تدمغه، لكنهم لم يعثروا على شيءٍ، ومع ذلك نُقل الأستاذ مع مائة وعشرين من طلابه إلى أنقرة[١٩]، وكانت التهمة الموجهة إليهم تأليف جمعية سرية وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية ومحاولة قلب نظام الحكم وتسمية مصطفى كمال بالدجال والسفياني[٢٠].

المدرسة اليوسفية الثانية

نقل الأستاذ من أنقرة إلى مدينة (دنيزلي) ووضع في سجن، وشكلت الحكومة لجنة تدقيق لرسائل النور لينظروا: هل فيها موضوعات سياسية أو أية أفكار أخرى ضد الحكومة فاعترض النورسي على تكوين هذه اللجنة لأنه رآها تكونت من أشخاص جهلاء غير مؤهلين للحكم على رسائله فشكلت الحكومة لجنة أخرى، وكانت النتيجة أنهم لم يعثروا فيها على شيء فيه إدانة للنورسي، وبقي النورسي موقوفًا في سجن دنيزلي في زنزانة انفرادية، وكان طلابه مسجونين في السجن نفسه، فعقدت محكمة العقوبات الكبرى عدة جلسات للمحاكمة ألقى فيها الأستاذ دفاعًا رائعًا نورد جزءًا منه

قال الأستاذ: (نعم نحن عبارة عن جمعية تحوي في كل عصر أربع مئة مليون من الأعضاء المنتسبين إليها، وهم يتسابقون دائما إلى تحقيق أهم شعارها ألا وهو إنما المؤمنون إخوة فنحن من أفراد هذه الجمعية العظيمة...، بأي وجه تريدون إيقاف حركة رسائل النور التي هي عبارة عن خدمة حقائق القرآن

(١٨) سيرة ذاتية، ص٢٤٦.
(١٩) المرجع السابق، ص ٥٧، ٢٤٦.
(٢٠) المرجع السابق، ص٦٢.

من يستطيع أن يقف في وجه حقيقة ترتبط بعرش الله تعالى؟[٢١] إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط بل إلى تلك الجماعة المتآمرة في (إسبارطة) أيضًا، أيحق لمارق مثل (د دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ويُعد ذلك أمرًا مقدسًا لأنه حرية للرأي والفكر، أهذه حرية الرأي والفكر؟

أما عن الجمهورية العلمانية فنحن نعلم أنها تلك التي لا تتعرض للدين في خير أو شر، ولكنكم تفسحون الطريق أمام كل جريمة وفاحشة خلقية وكذب على الله باسم الحرية الوجدانية والفكرية، إن دعواكم ليست إلا استغلالًا ووسيلةً لإعدام الدين باسم المحافظة على الأمن، فاسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وهويتم في الكفر المطلق، إنني أقول لكم: افعلوا كل ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام، إن السجن الخارجي على هذه الحال أسوأ مئة مرة من ذلك السجن الداخلي في ظل هذا الاستبداد، لا يمكن أن يقال: إن هناك حرية؛ حرية العلم أو حرية الضمير أو حرية التعبير أو حرية الدين، على طلاب الحرية أن يموتوا أو يبقوا في السجون؟! إن الزنادقة والمنافقين غرروا بكم وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساسية، إنهم اتخذوا من الاستبداد جمهورية ومن الردة نظامًا ومن الجهل والسفه مدنيةً ومن الظلم قانونًا؛ وبذلك خانوا وطنهم وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضربه مثلها)[٢٢].

ورغم صدور قرار المحكمة في ١٥/ ٦/ ١٩٤٤م ببراءة الأستاذ النورسي إلا أنه لم يطلق سراحه، وجاءت التعليمات بنفيه إلى قضاء أميرداغ، فنُقل ووضع في إقامة جبرية، ووضع على الباب حارس على الشيخ، فكتب الشيخ رسالة إلى رئيس قوى الأمن قائلًا له: (لماذا تعاملونني معاملة غير قانونية وأنا شخص أعاني من الغربة والمرض والشيخوخة؟ إن على هؤلاء الذين يقولون إنهم لا يريدون ظلمي ويحكمون ببراءتي أن يردوا إلي قبل كل شيء حريتي، إنني أتمكن أن أعيش بدون طعام لكن لا يمكن أن أعيش بدون حريتي[٢٣]. إذا استطاعوا أن يسكتوني أمام الناس فلن يستطيعوا إسكات رسائل النور التي تصل إلى شغاف القلوب، إن كل نسخة تقوم مقامي، ولن تسكتها أية قوة على الأرض)[٢٤].

المدرسة اليوسفية الثالثة

هل كان مرور اثنتين وعشرين سنة على حياة النفي والإقامة الجبرية والمراقبة والترصد لشيخ بلغ الخامسة والسبعين يكفي جلَّادِيه القساة؟ كلا، ففي ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٨م داهمت الشرطة بيت الشيخ وبيوت خمسة عشر من طلابه، وسيقوا جميعًا إلى سجن مدينة أفيون، واعتُقل أربعة وخمسون طالبًا من طلاب النور أيضًا، والتهم الموجهة إليهم هي التهم السابقة نفسها، وهي الاتهام بتشكيل جمعية سياسية أو السعي ضد نظام الحكم، استمرت جلسات المحكمة مدة طويلة وصدر القرار أخيرًا في ٦ كانون الأول ١٩٤٨م بالحكم على الشيخ بالسجن عشرين شهرًا، وبالحكم مددًا مختلفة على عدد من طلابه، وعومل الشيخ في هذا السجن معاملة قاسية؛ وضعوه في غرفة كبيرة في الشتاء القارس، وتركوه بدون مدفأة، وبعد انقضاء مدة الحبس اضطرت المحكمة إلى إخلاء سبيله[٢٥].

واستبشر المسلمون سنة ١٩٥٠م بمجيء الحزب الديمقراطي إلى الحكم لا لأن هذا الحزب كان إسلاميًّا بل لسببين:

الأول: أنه أزاح من الحكم أشرس عدو للإسلام.

الثاني: أنه أعطى بعض الحرية للنشاط الإسلامي وأعاد الأذان الشرعي، لذلك أرسل الأستاذ برقية لرئيس الجمهورية الجديد جلال بيار تمنَّى فيها أن يوفقه الله لخدمة الإسلام، ورد عليه الرئيس ببرقية شكر.

(٢١) المرجع السابق ص٦٧.
(٢٢) عاصم الحسيني: سيرة إمام مجدد، ص٥٦.
(٢٣) نجم الدين شاهين أر، ص٣٣١.
(٢٤) بديع الزمان سعيد النورسي ص٦٩.
(٢٥) المصدر السابق ص٧١

ملامح من منهج الأستاذ النورسي

الشيخ النورسي والتجديد

تمثل رسائل النور التراث النورسي العلمي والفكري والتربوي فالمطلع عليها يصل إلى قناعة أنه بهذه الرسائل جدد العَرْض الإسلامي وفق مقتضيات العصر، واستطاع أن يقود السفينة بعقل ومنطق وحكمة، فكان أسلوبه في أصول العقائد مخاطبة الأمة بخواصها وعوامها ورجالها ونسائها، وكان يؤمن أن فهم القرآن والاطلاع على حقائقه في عالم الأنفس والآفاق يرسم الموازنة الكاملة في فكر العالم المسلم؛ لذلك كان يأخذ بيد المسلم ليقرأ بنفسه حقائق التوحيد على لوحة الوجود[٢٦] ولم يكن أسلوبه ترفًا فكريًّا كما أنه لم يأت من فراغ ولا من ثقافة باردة بل نبع من مواجهته لتطورات الفكر في عصره وكان قد اطلع على كتب علم الكلام والفلسفة وغيرها لكنه لم يقتنع بأنها وسيلة مجدية في إنقاذ الإيمان، فاتبع طريق القرآن وحده للوصول إلى الله لأنه أقرب الطرق إلى الفطرة الإنسانية وتحريك العقول الباحثة عن الحق والقلوب العامرة بالتوثب الدائم وأكثر الطرق انطباقًا على آيات الأنفس والآفاق، فهل كان النورسي مجددًا فريدًا في عصره؟

نعم لقد كان النورسي مجدِّدًا في مسلكه وطرحه وفكره؛ فقد كان مفكرًا بحق، عاش آلام أمته وتحمل في سبيلها كثيرًا من العنت والمشاق، وكان مشعلًا لها في دياجير الظلام التي خيمت عليها[٢٧]، فمضى النورسي في صراع حضاري مرير محاولًا صياغة الناس صياغة ربانية في إطار إنقاذ الإيمان والدعوة إلى النظام الإسلامي، فهدفه تجديد حياة المسلمين في إطار الزمن الحاضر والصراع الحضاري الحاضر في حدود الدائرة القرآنية ومنهج الرسول -صلى الله عليه وسلم- والقيم الرفيعة التي صاحبت الجيل الأول، فكسر الحدود المصطنعة التي وضعت بين علوم الدين وعلوم الدنيا في القرون الأخيرة لفصل الدين عن العلم؛ لذلك دعا إلى تأسيس جامعة تجمع بين العلمين، لأنه أدرك بعمق أن تلك المناهج الفكرية التراثية لن تستطيع الوقوف أمام الإغراءات الفكرية لمناهج الحضارة المادية، فترك منهج علم اللام القديم ولجأ إلى منهج الكتاب المسطور والكتاب المنظور والقرآن الناطق المطبَّق لتتفق حقائق العلم مع حقائق الوحي، فحول النورسي إعجاز القرآن إلى معركة مُنتجة يتحدى فيها كفر الكافرين ونفاق المنافقين وردة المرتدين الذين ضللتهم فلسفات الغرب، فأردتهم إلى الحضيض وأفسدت كيانهم وحيرت عقولهم[٢٨].

منهج البناء عند النورسي

يقول النورسي: هناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات وهو معرفة الله عز وجل:

أولها: منهج الصوفية المؤسس على تزكية النفس والسلوك.

ثانيها: منهج علم الكلام.

ثالثها: مسلك الفلاسفة.

رابعها وأَوْلاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق إلى الله وأشمله لبني الإنسان، وهو يُدلِّل على أن الإيمان لا يحصل بالعلم وحده[٢٩]، فوضع النورسي منهجا شاملًا مستفادًا من القرآن والسنة والسيرة، وقد اطلع على كتب علم الكلام والفلسفة، غير أنه لم يقتنع بها في دعوته لإنقاذ الإيمان وإنما اتبع طريق القرآن وحده للوصول إلى الله.

استطاع النورسي بإيمانه وعزة نفسه وصلابة شخصيته الدخول في معركة مع الحكام ومواجهتهم، لكنه كان مقتنعًا بأن هذا الأسلوب ليس من مصلحة الأمة، وكان يدرك تماما أن الأمة في صراعها الداخلي لم تكن بحاجة إلى الشهداء، بل هي بأمس الحاجة إلى العلماء العارفين والدعاة العاملين والحكماء المفكرين لإنقاذ الإيمان والوقوف أمام الردة الحضارية والزحف الجاهلي متمثلًا بالحقد الصليبي والتآمر اليهودي وخيانة المنافقين[٣٠].

(٢٦) الكلمات ص١٧٣.

(٢٧) اللمعات ص١٦٧.

(٢٨) الكلمات ص٤٢٢.

(٢٩) المثنوي العربي، ص ٤٢٨، المكتوبات، ص٤٢٥.

(٣٠) من معالم التجديد عند النورسي، ص١٠.

كان يؤمن بالنظام في حركة التغيير الاجتماعي ويرفض الفوضى ويعتقد بالتدرج والانتقال من المقدمات الصحيحة إلى النتائج الصحيحة، وفي ضوء ذلك يدعو الإنسان إلى تغيير اجتماعي منظم من القاعدة إلى القمة لا العكس، ولإيمان النورسي بالتغيير في إطار الوعي الاجتماعي والدعوة السلمية والتخطيط الهادئ فإنه لا يبيح الثورة المسلحة داخل المجتمع الإسلامي لأن ذلك لا يخدم من وجهة نظره إلا العدو الخارجي المتربص بالمجتمع الإسلامي، غير أنه لا ينكر أن استخدام الهراوة قد يُحتاج إليه في المراحل الأخيرة من بناء المجتمع الإسلامي الجديد لأن من لا يقيده النصح والإرشاد يقيده الهلع والإبعاد فهو يعتقد أن التغيير الشامل في الحياة الإسلامية لا بد أن يبدأ من البنى التحتية المعنوية والمادية لا من وصفات مؤقتة؛ وذلك لملء الثغرات الخطيرة في البنيان الفوقي، وهناك ناحية أخرى يتسم بها منهجه وهو عدم الدخول في الصدامات الداخلية مع التيارات الإسلامية الأخرى لتوجيه الجهود الدعوية كلها إلى الجاهلية المعاصرة[٣١]؛ لذا لم يدع إلى الثأر للنفس رغم الظلم الذي مُنِيَ به هو وطلابه، وما كان يدعو للثأر للإسلام بالقوة والغضب بل بالحكمة والرحمة والموعظة الحسنة لتبليغ الدعوة وإنقاذ الإيمان، ومن المعلوم أن إنقاذ الإيمان عنده يعني إنقاذ الإسلام -من حيث هو كل لا يتجزأ- من مخططات العلمانيين وبالانطلاق من حسن الظن بالمسلمين وتجنب تكفير أي أحد منهم[٣٢].

ويرى أن الجهاد في العالم الإسلامي هو جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلمة والعلم والنصيحة لإعادة الأمة إلى حظيرة الإسلام حسب قانون التدرج، ويؤمن بأن المجتمع الذي يفقد أسس الإيمان وحرارة الانتماء لا فائدة من الحديث معه عن تفاصيل الشريعة، فالقاعدة الإيمانية إذا تكونت صار تطبيق شرع الله خطوة طبيعية نحو الوصول إلى المجتمع بحكم نظام الإسلام، ويرى الابتداء بالإيمان للانتقال إلى التربية فالشريعة، لكن ليس معنى ذلك أنه طبق هذه الخطوات منفصلة دون ترابط جامع[٣٣]، ولا شك أن النورسي وصل إلى هذا الرأي بعد أن استقرأ جميع الثورات الاجتماعية في العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين، يقول: إن الجهاد في أي مجتمع مسلم إنما هو جهاد معنوي يوصَل إليه عن طريق تنوير الأقطار وإصلاح القلوب والأرواح، وبذلك يكون جهادا إيجابيا بناء[٣٤]، وقد طبق هذا عمليا أثناء ثورة الشيخ سعيد بيران، وامتنع عن المشاركة فنجح أسلوبه بينما فشل أسلوب الآخرين، وبنى مدرسة ثقافية إسلامية روحية انتهت إلى إحداث وعي إسلامي قوي، وبه جاهدَ الكفر والإلحاد وهوَى بمعاول التوحيد الحق على مراكز الثقافة الفكرية والاجتماعية التي تفرعت عن المدارس المادية، فظهرت نتائجه عام ١٩٥٠م بفوز عدنان مندريس في الانتخابات وتأييد طلاب النور له وبعد نجاحه قام بتغييرات كثيرة في الدولة والمجتمع، وتبع هذا ظهور الصحوة الإسلامية في تركيا وبدء عودة المجتمع في كثير من مظاهر حياة أفراده إلى عقيدته وحضارته الإسلامية.

النورسي والسياسة

هل ترك النورسي السياسة وانسحب من الحياة عندما قال: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، ولم يهتم بشؤون المسلمين ولم يواجه الحكام بكلمة الحق والدفاع عن الدين خصوصًا أنه قسم حياته إلى سعيد القديم وسعيد الجديد وسعيد الثالث؟

الحقيقة؛ أنه لم يخالط الحكام ولم يدخل في أتون السياسة الميكافيلية التي تجسد التزلف والنفاق والمصالح الذاتية، ولم يكن طالبًا للمال والجاه والمنصب، بل لعن كل هذه المظاهر لعنَهُ لإبليس واستعاذ بالله منها، لكنه مع ذلك دخل السياسة الحقيقية من أوسع أبوابها، ولم يترك الأمة تعاني القهر وحدها في الميدان، ولم يتوانَ عن قَدْح سلاحه في وجه الزندقة والعلمنة فواجه الضالين بالإيمان وواجه القانون الغربي بشريعة الإسلام والمخطط العلماني بالمخطط الإسلامي، فضحى لإنقاذ الجيل من التغريب بكل شيء راحةً ومالًا ومنصبًا وسجنًا وتشريدًا وإقامةً جبرية في المنفى، وهكذا ارتقى إلى الأفضل والأحسن والأصلح لقضايا الأمة.

(٣١) الشعاعات، ص٤٢٤.
(٣٢) الشعاعات، ص٤٢٤.
(٣٣) اللمعات، ص ١٦٠، المكتوبات ص ٣٦٢.
(٣٤) الملاحق، ملحق أميرداغ ص٧٢.

كان سعيد القديم يخالط الناس في المجتمع ويسمع ثرثرتهم ويتحمل تفاهاتهم، فانسحب سعيد الجديد ليتفرغ لنفسه أولا وكان سعيد القديم معتزًّا بمظاهر الدنيا ليثبت أنه علامة الزمان ومثقف العصر، فكان يظهر أمام المجتمع مجادلًا عنيدًا فعاد سعيد الجديد إلى نفسه ليرى أن كل ذلك طريق الغرور وسبيل إلى بلبلة الفكر وضياع الشخصية وابتعاد عن منهج القرآن الكريم، وتحول إلى باحث عن الحقيقة قائد للمسيرة الطاهرة لإنقاذ الأمة من الكفر والنفاق والفصام، وكان سعيد القديم مفكرًا، لا حول له ولا قوة، لا يحسب له المتآمرون على الدين والوطن حسابًا، أما سعيد الجديد فخاض غمار السياسة سابرًا لمخاطرها قائدًا حركيًّا خطيرًا، يقود الركب وينقذ الإيمان ويهيئ صفوف الدعاة ليوم المواجهة، أَوَبْعد هذا كله يقال: إن سعيد الجديد ترك السياسة؟

وعندما تطوّف في رسائل النور ترى أنه ينتقد الحكام بأنهم يدفعون الأمة إلى هاوية المدنية الدنيئة، فاللمعة الثانية والعشرون كلها سياسة، وأجوبة عن أسئلة سياسية، يبين فيها استهانة الدولة ورجالها بالحق وظلمَهم للدعاة وكذبهم على الناس، ويصفهم بأنهم طغاة متجبرون متكبرون بلغوا الفرعونية...[٣٥]، ويصف الطاغية في زمانه بالمبتدع الملحد المفسد الضال، ويصف الذين يأتمرون بأمره بالمنافقين ويقول: إن زمان الإمساك بالهراوة لم يأت بعد لأنه مشغول بإنقاذ الإيمان وإحداث الوعي أوَّلًا، ويدعو طوائف الأمة إلى الائتلاف فيقول لهم: إن لم تزيلوا هذا النزاع فإن الزندقة الحاكمة الآن حكمًا قويًّا ستستغل أحدكم ضد الآخر وتستعمله أداة لإفنائه[٣٦] وصرح بأن القومية التي تتبناها الدولة سم قاتل ومرض أوروبي خبيث، ألقته أوربا للمسلمين ليسهل عليها ابتلاعهم قطعا متناثرة، وهاجم الفكر القومي العلماني مهاجمة شديدة، وبيَّن جذوره الأوربية، وهاجم علماء السوء الذين يصدرون فتاوى لتسويغ أعمال الدول في تغيير الشعائر الإسلامية، وينتقد رجال الدولة فيقول: (أخاطب أولئك الرؤساء المتفرغين في القيادة الذين يلعبون بمقدرات الأمة حسب أهوائهم، وأنتقد بشدة تدريس الفلسفة المادية الإلحادية للشباب)[٣٧]، ويبين أنهم يرتكبون هذه الأفعال تحت ستار الإفرنج والتمدن بمدنية فرعونية، تلك المدنية التي تزيل حجاب الحياء وتُشبع نزوات أغنياء سفهاء، وتكون وسيلة لشهرة طغاة ظلمة، وتزيد بأس البائسين وألمهم، ويقول: (أيها الملحدون المتفرنجون الذين يسعون لصرف إخواني الحقيقيين عني بدعايتهم أي نفع تسدونه لهذه الأمة؟ إنكم تطفئون نور أهل التقوى والصلاح)[٣٨].

هكذا كان النورسي في تلك الفترة، فإذا لم تكن هذه سياسة وعملًا بشؤون الدنيا والسياسة فيا ترى كيف تكون السياسة؟ إن ترك السياسة عند النورسي يعني عدم الاتصال بالحكام وعدم ذكر أسمائهم، والابتعاد عن الصدام معهم صدامًا حركيًّا مباشرًا، والامتناع عن الكتابة في صحفهم والنأي عن التهريج بكلمات جوفاء لا تفيد القضية، هكذا كان مخططه الإسلامي بدايةً صحيحة معاكسة مقاومة للمخطط العلماني[٣٩].

بعد سقوط الخلافة وظهور الأعداء علنًا وبيدهم القوة الغاشمة بدأ النورسي يدخل السياسة من باب آخر، يعتمد على التخطيط والمواجهة الذكية وتحويل المعركة من أسلوب إعلامي فاضح إلى مخطط فكري عميق لصياغة الأمة المنكوبة من جديد، وكان للنورسي من قوة الإيمان والشجاعة ما يستطيع به المواجهة ويضحي بنفسه شهيدًا، لكن كان يعلم جيدًا أن هذا ليس من مصلحة الأمة، وكان موقنًا أن الأمة لم تكن يومئذ بحاجة إلى شهداء، بل إنها بأمس الحاجة إلى العلماء والدعاة المفكرين كي ينقذوها من السقوط الإيماني والردة الحضارية والهمجية الجاهلية[٤٠]. وعندما بدأ نصب التماثيل في الميادين قال النورسي: (النصب الذي يجب على المسلمين إقامته هو المستشفيات والمدارس وملاجئ الأيتام والأقسام الداخلية

(٣٥) الشعاعات، ص٤٢١.
(٣٦) اللمعات، ص٣٨.
(٣٧) المكتوبات، ٧٩ـ ٤١٥ـ ٥١٠ـ ٥٤٤ـ ٥٥٣.
(٣٨) المكتوبات، ٥٤٨.
(٣٩) المكتوبات، ص ٧٦.
(٤٠) المكتوبات، ص ٥٨.

للطلبة ودور العبادة وشق الطرق)[41]، وظل النورسي في عهده القديم وفي عهده الجديد هو هو، لم يتغير لكنه أدخل التغيير في خططه وأسلوبه السياسي في كتابة رسائله، فنشر الوعي الصحيح في ظل قاعدة التدرج والأخذ بنظام الأولويات دون حاجة إلى استعمال العنف، ولو لم يكن النورسي شخصية سياسية مؤثرةً لَما قضى جل حياته في السجون والمحاكمات والمنفى والإقامة الجبرية، ولَما مُنِعت رسائله من النشر بينما لم يفعلوا ذلك بغيره من العلماء؟ فما فعلوا ذلك بالنورسي وحده إلا لأنهم كانوا يعلمون أنه بصدد مشروع نهضوي حضاري شامل؛ لذلك عدوه سياسيًّا خطيرًا[42]، وأشار النورسي إلى أن سبب تخلف الدولة العثمانية فئات ثلاث تتحمل قسطا كبيرًا من مسؤولية تأخرها:

الأولى: فئة العلماء.

الثانية: فئة المتعلمين المثقفين الذين لم يفهموا حقيقة الغرب.

الثالثة: فئة أصحاب الزَّوايا، وبيَّن أن كل فئة من هذه منغلقة على نفسها وتتهم الآخرين بالكفر أو الجهالة.

موقفه من الاجتهاد

كان موقف النورسي من حركة الاجتهاد ردَّ فعلٍ واقعي على حركة التغريب التي أرادت أن تصبغ المجتمع الإسلامي بصبغة الحياة الأوربية جملةً وتفصيلًا، فرأى أنه لا معنى للدعوة إلى الاجتهاد في جو كهذا لم يبق لضوابط الإسلام فيه أية قيمة،

فأي نوع من الاجتهاد سيجري الآن سيكون في فلكِ الحياة الغربية، ومن المنطقي أن كل فلسفة لها أسسها وقواعدها ومعالجة أية قضية تتفرع منها لا يمكن أن تتم إلا في إطارها فرأى النورسي أن بعض العلماء الذين لا يتحلَّون بأي شرط من شروط الاجتهاد يسوغون كل التطورات الإلحادية التي جرت في تركيا باسم الاجتهاد، فهو يؤمن أن باب الاجتهاد مفتوح لكنه يعتقد أن هناك موانع تحول دون الدخول فيه الآن:

أولها: فتح باب الاجتهاد في قطر الإسلام المنيف أو فتح الثغرات التي هي وسيلة لتسلل المخربين؛ خيانةٌ في حق الإسلام.

ثانيها: إن الاشتغال بتقوية أصول الإيمان وما هو قطعي الثبوت من النصوص التي مُنِيت بالتشكيك أفضل من الانشغال بأمور نظرية جزئية؛ لأن العقائد الإسلامية وأصولها التشريعية غدت في خطر كبير فما فائدة الحديث في الفروع؟

ثالثها: تحكُّمُ الفلسفة المادية ومظاهر الحياة الغربية في حياة المسلمين اليوم أنستهم رضَا الله سبحانه وتعالى؛ لذلك فإن أي حديث عن الاجتهاد في مثل هذا الجو لا يكون مبنيًّا إلا على أسس بعيدة عن الورع والتقوى.

رابعها: إن حركة الاجتهاد في العصر ليست ناشئة عن رغبة داخلية أو حاجة اجتماعية منسجمة مع التطور الطبيعي، وإنما متأثرة بمشكلات الحضارة الغربية التي تضغط على مجتمعنا لذلك فهي لا تكون إلا وسيلة لتخريب المجتمع الإسلامي.

خامسها: إن الاجتهاد لا بد أن يجري في إطار الشريعة مهما تغيرت الحياة، ولكن تطور الحياة في عصرنا تطور مقلِّد يسير بمعزل عن ضوابط الشريعة؛ ومن هنا فإن الاجتهاد لن يكون في إطار ضوابط الشريعة بل في إطار غير منضبط بضوابط الشرع، لذلك تكون هذه الاجتهادات وفق قوانين أرضية وليست سماوية[43].

النورسي وتجديد علم الكلام

إن ظروف مجتمع النورسي القاسية التي فرضت الإلحاد والزندقة بقوة الحديد والنار على المسلمين دفعته إلى التركيزِ على اتجاه آخر وصرفِ حياته كلها في سبيل توضيحه وتفهيمه وهو تجديد علم الكلام تجديدًا واضح المعالم قوي الأركان فأوجد علمَ كلام قرآنيًّا جديدًا استطاع به نقل علم التوحيد من نظريات فكرية مجردة يفهمها الخاصة إيمانًا عقليًّا مجردًا

(٤١) المرجع السابق، ص٢٧.

(٤٢) مرجع سابق، محسن عبد الحميد، ص٥٩، المكتوبات، ص٥٩، النورسي متكلم لعصر الحديث، ص٢٣٩.

(٤٣) النورسي متكلم العصر الحديث، ص٢٣٩.

إلى سلوك في الحياة؛ ينفعل به العقل وتثور العاطفة ويتحول إلى ممارسة يومية، تحدد خط السير المستقيم للإنسان المسلم، وتحول بينه وبين الوقوع في الحرام.

إن علم الكلام استطاع في فترات الجدال العقلي بين الخاصة أن ينقذ الإيمان العقلي لكنه لم يستطع أن يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية تحقق المعنى الحقيقي لعبودية الإنسان لرب العالمين، أي إنه لتأثره الواضح بالمنهج الفلسفي الجاف لم يستطع أن يتحول إلى مدرسة للتربية الاجتماعية؛ لذلك فإن مجرد إعلان الإيمان بالله لم ينقذ سلوك المسلمين في العصور الأخيرة من كارثة البعد والشرود التي أدت إلى انحدارهم وسقوطهم وفقدانهم حقيقة التوحيد من حياتهم، وقد استطاع النورسي أن يحدد المرض الخطير في جسم الأمة، ثم عالجه معالجة قرآنية خالصة، فحول عقيدة التوحيد إلى حياة مفعمة بمعاني الإخلاص والاستقامة والتضحية والسلوك[٤٤].

كان أسلوب النورسي في الحديث عن أصول العقائد الإسلامية فريدًا في بابه؛ فهو يعتمد على الأسلوب التفصيلي الذي يدخل قارئه إلى جذور القضايا بعكس علماء الكلام السابقين الذين كانوا يخاطبون الفلاسفة وتلامذة العلم العقلي التجريدي فكانوا يعتمدون على الإيجاز الشديد والمقدمات العقلية والمصطلحات العلمية المعروفة لا يتجاوزونها، بينما كان النورسي يخاطب أمة كاملة بخواصها وعوامها وقعت في براثن خدعة حضارية مادية شاملة، فتكت بعقول أبنائها وقلوبهم وسلوكهم، ودخلت في تفاصيل حياتهم بطرائق مغرية[٤٥].

النورسي والفلسفة

اطلع النورسي على مدارس الفلسفة المتنوعة منذ عصر اليونان إلى زمانه، لكنه رفضها ورفض مناهجها المخالفة للإسلام إلا إذا استجابت للدين وانقادت له فحينئذ تنتعش الإنسانية بالسعادة وتعيش حياة اجتماعية سليمة، والحق أن كثرة المدارس الفلسفية وتنوع آراء الرجال فيها دليل على عدم عصمة الفلسفة، فهي اجتهادات العقول البشرية خارج الوحي، وسببَّ هذا انحرافًا في فهم ماهية (أنا) في الإنسان، فقابلوا بالكفر دلائل الوحدانية كلها، فالفلسفة الملحدة إنما هي سفسطة لا حقيقة لها لأنها تجاهلت نظام الكون وأسراره، ولا تجيب على أسئلة العقول وتتجاهلها[٤٦]؛ وبذلك حصل الطغيان في (أنا) الإنسان عندما تحول الوهم إلى الحقيقة في جانب الخير، فأنكر ربوبية الخالق وبدل أن يدرك بعلمه الجزئي علم الله المطلق لم يعترف بوجوده أصلًا، وهكذا نسي (أنا) حكمةَ خالقه معتقدًا بنفسه أنه المالك الحقيقي ولا مالك غيره[٤٧].

ويدخل النورسي في مقارنة واقعية بين نتائج حكمة القرآن وحكمة الفلسفة وما يعطيه كل منهما من تربية للمجتمع الإنساني فيقول: إن حكمة الفلسفة ترى (القوة) نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى (المنفعة) في كل شيء وتتخذ الصراع دستورًا للحياة، وتلتزم (بالعنصرية) والقومية السلبية رابطة للجماعات؛ أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى، ومن المعلوم أن شأن القوة هو (الاعتداء) وشأن المنفعة هو (التزاحم)، وشأن (الصراع) هو (النزاع والجدال)، وشأن (العنصرية) هو (الاعتداء) إذ تكبر بابتلاع غيره وتتوسع على حساب العناصر الأخرى؛ ومن هنا نرى لماذا سلبت السعادة من البشر.

أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل (الحق) نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلًا من (القوة)، وتجعل رضا الله – سبحانه – ونيل الفضائل هو الغاية بدلًا من (المنفعة)، وتتخذ دستور (التعاون) أساسًا في الحياة بدلًا من دستور (الصراع) وتلتزم برابطة الدين والوطن لربط فئات الجماعات بدلًا من العنصرية والقومية السلبية، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية، وشأن الحق هو (الاتفاق)، وشأن الفضيلة هو (التساند)، وشأن دستور (التعاون) هو إغاثة الكل للآخر، وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو (سعادة الدارين)[٤٨].

(٤٤) المرجع السابق، ص١٠٥.
(٤٥) المرجع السابق، ص٧٨.
(٤٦) الكلمات، ص٦٣٩.
(٤٧) المرجع السابق، ص٦٤٠.
(٤٨) المرجع السابق، ص١٤٦.

وليس موقف النورسي من الفلسفة عدائيًّا، وإنما هو يميز بين الفلسفة الخادمة والفلسفة الكافرة الجاحدة التي ترفض مبادئ الدين الحق (الوحي الإلهي).

والأستاذ النورسي لا يرفض الفلسفة المادية فقط وإنما يرفض ما يسمى بالفلسفة الإلهية القديمة التي تحولت إلى أبواب من الشرك ممثلة بروادها اليونانيين وتلامذتهم من المسلمين كالفارابي وابن سينا، وإذا كان الإشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهمًا يتفوهون بالسخف من الكلام فكيف يكون -يا ترى- كلام من هم دونهم في الفلسفة والحكمة من ماديين وطبيعيين[٤٩]؛ لكل ذلك يعتقد النورسي أن الفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا لن ينالوا إلا أدنى درجات الإيمان لأنهم اتخذوا (الفلسفة اليونانية) أستاذًا لهم[٥٠].

موقف النورسي من الحضارة الغربية

كان النورسي مفكرًا إسلاميًّا يؤمن بتطور الحياة وتجددها لكنه يرفض الأسس الثقافية الناتجة عن الفلسفات المادية في الحضارة الغربية، وقد حدد النورسي خمسة أسس مادية تقوم عليها الحضارة الغربية:

أولها: هذه الحضارة تؤمن بالقوة ولا تؤمن بالحق، والقوة بدون الحق تؤدي إلى الاعتداء والتجاوز على الأمم الأخرى ومخالفة الموازين العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة.

ثانيها: إيمانها بالمنفعة (البراغماتية) التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة؛ لأن الأخلاق تكون تابعة لمصلحة المنفعة التي شأنها التخاصم الذي ينتهي إلى الجناية بحق الأفراد والجماعات والأمم.

ثالثها: دستورها في الحياة التصادم بدل التعاون لأنها قائمة على الصراع الحيواني في المدافعة والمنافسة.

رابعها: لم تؤمن بغير رابطة القومية والعصبية التي تنمو على حساب غيرها وتبتلع الآخرين، وهذا يؤدي إلى العنصرية التي تؤدي إلى التصادم، فينشأ منه الدمار والهلاك.

خامسها: أنها تحتوي على مغريات رهيبة جذابة كتشجيع الأهواء والنزوات وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائما مسخ الإنسان وتغيير فطرته وحياته؛ ولذلك فهي بدورها تمسخ إنسانية الإنسان وتحولها إلى مجرد الحيوانية[٥١].

ويتحدث النورسي في هذا المجال عن أثر الإباحية الغربية في النساء، فقد أطلقتهن من أعشاشهن وامتهنت كرامتهن وجعلتهن متاعًا مبذولًا، واستباحت بهوى الشباب الطائش أعراض النساء والعذارى الفاتنات ودفعتهنَّ إلى الاختلاط الماجن البذيء[٥٢]، ويؤكد أن المسلمين لم يقبلوا هذه الحضارة باختيارهم وإرادتهم بل فرضت عليهم مبادئها ونتائجها فرضًا؛ لأن الحضارة التي عاشوا فيها وانطلقوا منها إلى بناء الحياة تختلف في أصولها ونتائجها عن هذه الحضارة، فنقطة استنادها الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائما العدالة والتوازن، ومن هنا ينشأ السلام ويزول الشقاء، وهدفها الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة المحبة والتقارب، ومن هنا تنشأ السعادة وتزول العداوة، ودستورها في الحياة التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات، وخدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء والتنازع، وشأن الهدى الارتقاء بالإنسان ورفاهه وتنوير روحه، ورابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين والانتساب الوطني وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة أخوة خالصة وطرد العنصرية والقومية السلبية[٥٣]، ويحذر النورسي المسلمين أن يكونوا كتلك الأقوام التي ضحت بكل مقدساتها في سبيل الغرب للأسباب الآتية:

(٤٩) الكلمات، ص٦٤٤.
(٥٠) النورسي متكلم العصر الحديث، ص١٨٨ ـ ١٩٥.
(٥١) الكلمات، ص٨٥٥.
(٥٢) المرجع السابق، ص١٦٤ ـ ٨٧٤.
(٥٣) الكلمات، ص٨٥٥.

١ ـ إن دين المسلمين هو دين التوحيد الحق الذي يتساوى في ظله الناس جميعا، انبعث من نظام حضاري متكامل يستند إلى الإيمان والعلم والعقل ومعالجة حياة الفقر والتأخر الاجتماعي.

٢ ـ إن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام بيد ظالمين يسحقون شعوبهم كما حصل في أوربة.

٣ ـ من الخطأ قياس الإسلام على النصرانية، فأهل الغرب لم يتقدموا إلا عندما تركوا التعصب الديني، أما المسلمون فلم يتأخروا إلا عندما تركوا التمسك بحقائق الإسلام.

٤ ـ من الخطأ الاعتقاد أن ساسة الغرب قد تركوا التعصب الديني تجاه المسلمين حتى يفكر الساسة المسلمون في تقليدهم في ذلك.

٥ ـ إن الفلسفة والدين لا بد أن يكونا في خدمة الدين الحق الإسلام حتى تكون الحياة متوازنة.

٦ ـ إن وضع اللغة والوطن والعنصر بمواجهة الإسلام خطر عظيم على الأمة لأنه يمزق وحدتها، أما إذا اتحدت تلك العناصر فستنتهي إلى صنع أمة قوية.

٧ ـ إن الإسلام عبر التاريخ هو الذي صاغ القيم العليا للأمة، وبها استطاع أن يثبتَ قرونًا من الزمان أمام الطامعين الاستعماريين[٥٤].

ويتوقع النورسي أن البشرية في هذه الحضارة بعد أن أصابتها الانحرافات السلوكية والعقدية والحروب المدمرة ستبحث عن حقائق القرآن الكريم لإنقاذها من أمراضها الفتاكة ومحنتها الحضارية المدمرة[٥٥]، أما موقف النورسي من الجوانب العلمية في الحضارة الغربية فهو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام أن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لإقامة الحضارة وبناء التقدم؛ لذلك دعا المسلمين للأخذ بأسباب الحضارة الصناعية لأنها من ضرورات إقامة الحياة القوية، ويؤكد النورسي أن تجديد المجتمعات الإسلامية يحتاج إلى تبني التقنية الحديثة مع المحافظة على الأصالة والقيم الذاتية، فينبغي اتخاذ اليابان مثلًا في أخذهم الحضارة الغربية مع احتفاظهم بمقوماتهم القومية[٥٦].

إن منهج العلاقة بالغرب وأسس حضارته في سياق هيمنته عند النورسي الاستثناءُ بدلَ التعميم في الحكم على الآخرين والاستفادة منهم وضرورة التمييز بين دائرة الاعتقاد ودائرة المعاملات في التعامل مع تلك الحضارة، فخذ ما صفا ودع ما كدر، وتتنوع أساليب خطابه في سياق التدافع الحضاري وتحريك المشترك الإنساني العام في الحوار مع عقلاء الحضارة الغربية؛ لذلك لم يكن يقصد في خطابه لحضارة الغرب إظهار الغلبة والانتصار للذات، وإنما كان يسعى إلى الدفاع عن قضية الإنسان المعاصر وإنقاذه من فتنة الطغيان المادي الذي فرضته الحضارة الغربية حتى أضحت خطرا يهدد البشرية، يقول سعيد النورسي:

(فهذه المدنية الخبيثة التي لم نر منها غير الضرر هي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموهة زائفة، وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك)[٥٧].

والإنسان في فكر النورسي هو المحور الأساس لتحديد رؤية شاملة نحو حضارة معينة، فكل حضارة احترمت حقوق الإنسان وحافظت على أبعاده الروحية والمادية هي حضارة إيجابية نافعة، وكل حضارة استعبدت الإنسان وقضت على إنسانيته هي حضارة ضارة، فقد اعتمد السعادة البشرية معيارًا لتحديد معالم الحضارة الإيجابية، وهو ما جعله يقسم المدنية الحديثة إلى ضارة ونافعة.

(٥٤) المكتوبات، ص٤١٦.
(٥٥) الكلمات، ص١٧٢.
(٥٦) صقيل الإسلام المحكمة العسكرية، النورسي متكلم العصر الحديث ص١٩٧ ـ ٢٠١.
(٥٧) صقيل الإسلام، ج٨ ص٣٥٧، اللمعات، ج٣ ص١٦٢.

رسائل النور

عدد أجزاء رسائل النور يتجاوز (١٣٠) رسالة باللغة التركية جمعت في مجلدات من الحجم المتوسط، وهي الكلمات والمكتوبات واللمعات والشعاعات والملاحق أعني ملحق بارلا وقسطموني وأميرداغ، وجوهر هذه الرسائل كلها هو الإيمان وخصائصه ووسائله، وفي بعضها حديث عن قضايا الأستاذ النورسي وبعض تلاميذه أمام المحاكم فضلا عن المواضيع الدقيقة التي تمس التوحيد والآخرة وسائر أركان الإيمان.

والملاحق مجموعة رسائل توجيهية في أساليب الخدمة للقرآن الكريم وفي أمور متفرقة من المسائل التي تواجه الفرد المسلم في دعوته، كان الأستاذ يوجهها خفية إلى تلاميذه من السجون وهناك رسائل خاصة في مسائل كلامية دقيقة أو لتثبيت الجماعة المؤمنة لم يكن -رحمه الله- يرغب في أن تنشر في أوساط ليست مؤهلة لقراءتها، ثم إن كثرة المراقبة والتفتيش والمحاكم أخرجت هذه الرسائل وكشفتها؛ لذا ضمنت بعضها في الملاحق، وطبع بعضها بشكل مستقل في مجلد واحد مثل (ختم التصديق الغيبي)، وهو عبارة عن موضوعات ورسائل لتثبيت أهل الإيمان أمام تحديات الكفر والضلالة استخرجها من الآيات والأحاديث وأقوال الأئمة، وهناك رسائل أخرى مستقلة في كتب صغيرة منها (المدخل إلى النور) و (مفتاح لعالم النور)، وهي آخر رسالة كتبها الأستاذ، ورسالة (محاكمات) و(سنوحات) و (مناظرات).

وثمة رسائل ليست سوى بضع صفحات بينما هناك كتاب كامل يعد رسالة واحدة، وكان الأستاذ يشير إلى تلاميذه بوضع هذه الرسالة في اللمعات مثلًا ووضع الأخرى في الشعاعات؛ وهكذا، وكان يأخذ رأي طلابه في ذلك، أما الرسائل باللغة العربية فقد سبقت الرسائل المكتوبة باللغة التركية؛ فقد انقطع التأليف باللغة العربية بانتهاء الدولة العثمانية إلا أن الأستاذ ضم مؤلفات سعيد القديم إلى رسائل النور أيضا، ثم عدَّها نوى وشتلات لرسائل النور، ومن المعلوم أن جميع هذه الرسائل باللغتين التركية والعربية كانت بالحروف العربية حتى ١٩٥٥ يوم أذِن الأستاذ بنشر التركية منها بالحروف اللاتينية حتى لا يحرم طلاب المدارس الحديثة من رسائل النور[٥٨].

قال الأستاذ إحسان قاسم الصالحي: (ورغم أن الأستاذ من أصل كردي إلا أنَّه لم يكتب في الرسائل فقرة كاملة باللغة الكردية لأن اللغة التركية يومئذ كانت لغة الدولة ورعاياها ولغة الحضارة العثمانية)[٥٩].

هل استطاع النورسي أن يحقق في طلابه الهوية الإسلامية؟

لم يمر على المسلمين زمن كانوا بحاجة شديدة إلى تحديد هويتهم الإيمانية والاجتماعية والحضارية كحاجتهم إليه في القرن العشرين، فقد تكدست عوامل التأخر، وتكالبت عليهم جموع الأعداء ليبثوا فيهم أفكارهم المادية وفلسفاتهم الجاحدة وقيمهم النسبية وأنماط حياتهم الاجتماعية لإدماجهم في نسيج الحضارة المادية المعاصرة، وذلك من خلال الانقلابات الإلحادية التي استعملت العنف والقوة في فرض ثقافة مستوردة للقضاء على الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا وحضارة تحت مظلة الاحتلال الغربي والشرقي لمعظم بلاد المسلمين، فقد تحول التغريب الملحد بمرور الزمن إلى ثقافة مقدسة ملأت حياة المسلمين الفارغة، وأبعدتها عن إدراك السنن الإلهية لقيام المجتمعات وسقوطها أو لعوامل النصر والهزيمة في حياة الشعوب والأمم، لكن بقدر ما كانت معركة الفرض الدموي للتغريب مروعة ومأساوية في مركز الأمة الإسلامية وموطن خلافتها الأخيرة كانت الاستجابةُ ثورةً عقديةً فكرية إسلامية فخمة عميقة، لكنها في الوقت نفسه كانت هادئة حكيمة سليمة، واستطاع النورسي العالم الرباني الصلب أن يقود ركب إنقاذ الإيمان بوعي واقتدار وفكر نير وإيمان راسخ لتجديد هوية الأمة في الإيمان والإسلام والأصالة والانتماء والاعتزاز والمنعة.

وأدرك النورسي عندما واجه أمراض أمته أنَّ الشخصية الإسلامية قد فرغت من جذورها، فلو كانت الأمة سالمة من الأمراض لما سقطت أمام المخطط الإلحادي، فبدأ الإمام النورسي بناء الإيمان الخالص بإيقاف المسلم أمام خالقه تمهيدًا لإعادته إلى الانطلاقة الأولى عندما حركه القرآن متدرجًا من عالم الحس إلى عالم العقل ثم الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي الحق.

(٥٨) بديع الزمان سعيد النورسي، ص١٣٢ ـ ١٣٣

(٥٩) المصدر السابق، ص١٣٥.

وأدرك الملحدون أن الهجوم الكاسح على قلعة العقيدة من شأنه أن يسلب المسلمين قاعدتهم التي ينطلقون منها إلى بناء الحياة في ظل الإسلام، فإذا انحرفت العقيدة وسلب منهم إيمانهم فسيذوبون في مبادئ الغرب وقيمه النسبية والأخلاقية، فسحب النورسي البساط من تحت أقدام العلمانيين، وتوجه إلى قلعة الإسلام، فكان هذا المنهج مباركا لأنه حدد هوية المسلم بما يأتي:

١ ـ حوَّل عقيدة المسلم من التجريد العقلي إلى التربية الإيمانية.

٢ ـ استطاع أن ينقذ هوية الإنسان المسلم من الذوبان في التلمذة على أسس الفلسفات الغربية الجاحدة ومنهجها في العلم المفضي إلى الإلحاد، ويوجهها للتلمذة على القرآن الكريم فحررها من ضغط الغرائز والخضوع للهوى المضل وانحراف العقل وأنقذها من التيه والخرافة التي حطمت شخصية الأمة الإسلامية في العصور الأخيرة.

٣ـ أدار رسائله كلها في دائرة كبيرة، منها حياة القدوة العظمى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستعادة هوية المسلم في العصر الحديث تتطلب الانضمام النهائي إلى موكب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته الكرام وصحابته فينبغي بناء جزئيات السلوك بناءً ربانيًّا محكمًا، وهكذا عادت هوية المسلم أخلاقيًّا إلى مكانها الطبيعي؛ عبادةً لله في المساجد وصدقًا في المعاملة في عالم التجارة، وخلاصًا من البخل والتبذير، وتوجهًا إلى اقتصاد القناعة والبذل في سبيل الله، وفي الدعوة والإخلاص لأداء مهمات الخلافة الإنسانية في جزئيات الحياة الكثيرة، والعمل في إطار أخوة إسلامية حقيقية وفي بناء الأسرة بناءً إسلاميًّا لجيل يعتز بانتمائه الإسلامي إلى أمته ويتوجه نحو إنقاذ الآخرين من الركوع المهين أمام الطاغوت الإلحادي

يقول النورسي:

(أيها المسلم أنت موضع تجليات أسماء الله الحسنى لأنك تلميذ القرآن، فكيف تذوب في حضارة لادينية؟ أتريد أن تخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر المطلق والشرك المظلم وتتنكر لخلافتك العظمى في الوجود التي صنعت منك إنسانًا كونيًّا صديقًا للكائنات جميعًا؟).

إن هوية الإنسان المسلم في رسائل النور هويةٌ كونيةٌ قرآنيةٌ إنسانيةٌ موحدة ربانية عابدة؛ فهي هوية متميزة شاهدة على الناس جميعًا، وإذا كان ذلك كذلك فإن أي هوية أخرى نتقمَّصُها -نحن المسلمين- ستكتب علينا صكَّ الذلِّ والعبودية لغير الله، فإن فعلنا ذلك خسرنا أنفسنا وآخرتنا، ودفنَّا كياننا في ظلمات النسيان المطلق.

وبعدُ فهل استطاع النورسي أن يحقِّق عمليًّا مثل هذه الهوية في عالم الإنسان المسلم؟ أقول: استطاع النُّورْسي أن يربي طلاب النور على هذه الهوية الربانية، فنحن نجدهم في أرض الواقع قد تجلت على وجوههم عبادةٌ خالصة فأدبٌ قرآني، وتحكُّم بالمال ونظافة في البدن واللسان، وحبٌّ للمسلمين جميعًا ووفاء منقطع النظير لأستاذهم النورسي، وإنكار للذات وتواضع شفاف، وتقدُّم في العلم والعرفان وإتقان للعمل، وحركة دائمة لا تتوقف ولا تفتر في خدمة الإيمان ونشر حقائق القرآن وحكمة في التصرف ووعي بالحياة وهدوء في الشخصية بعيد عن الصخب والجدال والادعاء والتعالي والثرثرة؛ فجديرٌ بالصحوة الإسلامية الحاضرة أن تستفيد من دراسة شخصية الإمام النورسي ومنهجه الإسلامي القويم لتتخلص من الشروخ التي أحدثتها ظروف المواجهة في السياسة والثورة والعنف[٦٠].

(٦٠) من معالم التجديد عند النورسي، ص٨٥ ـ ٩٥.

الإسلام السياسي

"النشأة والهدف"

د. عامر البو سلامة

شمول الإسلام

الإسلام دين الله تعالى الخالد وشريعته التالدة وقانونه الثابت الذي سيبقى ما بقيت الحياة، يصلح لكل زمان ومكان، ولا يبلى بمرور الأزمان، فهو روح متجددة، من حكم به حاز سعادة الدارين وأفلح في أموره كلها، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكًا ويكون أمره خُسْرًا، وما ضاعت بعض البشرية وصار أمرها إلى الجاهلية إلا لما تركت هذا الدين ولم تأخذ بهديه ونوره؛ فآل وضعها إلى خسران مبين {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}.

ومن خصائص هذا الدين الشمول، فهو ينتظم شؤون الحياة جميعًا ويفتي في المسائل كلها {تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} يقول الإمام البنا في الأصل الأول من الأصول العشرين: (الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء). فما من قضية إلَّا وتدخل في محددات هذا الدين المنهجية بروح منفتحة وتكوين حضاري ورُقي تجديديٍّ ونظرٍ اجتهاديٍّ، فيشكل ألوانًا من الحضور الواقعي بما زخر به من شهادة الوحي وإثبات التجربة وشهادة المنصفين، جاء في الحديث الصحيح: ((إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا))[1] وهكذا برزت تلك القامات والرايات المرتفعة في فنون كثيرة من مجالات العلم وإبداعات الحضارة.

مصطلح الإسلام السياسي

من المنطلق السابق يتأكد أنه لا يُقبل الإيمان بالإسلام مجزَّأً ولا بطريقة العِضين، فقد نعى الله تعالى على صنف من الناس فقال: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} فالإسلام حزمة خير متكاملة، وللعمل الصالح فيه مراتبه، ومن قوانين عمله ترتيب الأولويات، ومن لوازم نشاط العمل له فقه الواقع بالجمع بين المعاصرة والتراث؛ من هنا يأتي رفض نظرية تقسيم الإسلام وحصره بجانب من جوانب الحياة، إنها نابتة سوء تريد الكيد للإسلام وأهله، فصار هذا التيار الغريب ينادي بالإسلام التقليدي أو إسلام الأصالة أو إسلام الروح أو إسلام الشرق أو إسلام الغرب أو الإسلام الاجتماعي إلخ، فهؤلاء يحصرونه بالعبادات فلا يخرجون عنها، وآخرون نظروا إليه على أنه منهاج ثقافي فحسب، وصنف ثالث رأوا في القرآن أنه كتاب يقرأ في الموالد وعلى الجنائز وعلى المرضى لا غير، حقًّا إنها ثقافة التلبيس واللعب على حبال الألفاظ للتضليل والتشويه.

(١) رواه أبو داود في سننه، باب [ما يذكر في قرن المائة] رقم (٤٢٩٣)، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت.

الإسلام حزمة كاملة تشمل نظم الحياة جميعًا عقيدة وشريعة، ففي الإسلام النظام السياسي والأخلاقي والاجتماعي وبناء الأسرة، ونظام اقتصادي ونظام تربوي وتعليمي ونظام قضاء وإفتاء ونظم أخرى، وقد كتب في بيان حقائقها جماعات من العلماء، ففرق كبير بين مصطلح الإسلام السياسي المرفوض المشحون بالغمز واللمز والتجريح والهمز، وبين تأكيدنا على جزء من أنظمة الإسلام الشاملة وهو هنا النظام السياسي في الإسلام.

لماذا نرفض مصطلح الإسلام السياسي؟

بدأت شهرة هذا المصطلح في التسعينيات تقريبًا عندما أعلن بعض الساسة الغربيين أنه آن الأوان للحد من انتشار ما يسمى بحركات الإسلام السياسي، وكانوا من قبل يسمونها الحركات الأصولية، وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول برز المصطلح بصورة واضحة على أنه عنوان لجماعات تستتر بالدين لأغراض سياسية، وهذا كلام مرفوض مرذول، فيه قلب للحقائق وتغرير بالناس، ويعنون بهذا حركات العمل الإسلامي الوسطية المعتدلة التي تمارس العمل السياسي من خلال نظرية الشمول لتحقيق برنامج الحكم الإسلامي الراشد، فهم يريدون بهذا تشويه سمعة هؤلاء الإسلاميين وفصلهم عن جمهورهم، طاعنين في مصداقيتهم، ولسان حالهم ومقالهم ينادي: لا تصدقوا جماعات الإسلام السياسي؛ فإنهم يتخذون الدين ستارًا، ثم يستخدم هؤلاء الطاعنون كل وسائل التواصل مع الناس لبث هذه السموم خصوصًا في أيامنا هذه، ويعملون على ترويج ذلك من خلال آلة إعلامية لا يستهان بها.

أعذر من يروق لهم استخدام هذا المصطلح ويعبرون عنه بحسن نية وكأنهم هم من أنشأ هذا المصطلح، فيعرِّفون جماعات الإسلام السياسي بأنهم أولئك الذين يؤمنون بشمول الإسلام، فيشاركون في العمل السياسي ويخوضون غماره على أنه جزء من الحقيقة الإسلامية؛ إذ لا يجوز فصل الدين عن الحياة بصورة من الصور، فهذا لعمري تعريف لا يريده صناع مصطلح الإسلام السياسي، ولو كان ذلك كذلك لما كانت هناك مشكلة، لكن الأمر على غير هذه الصورة، فلا يقعن أحدنا في الفخ من حيث لا يعلم، لأن صناعة الصورة الذهنية المنفرة من أبناء العمل الإسلامي ثم استخدام هذا المصطلح تزيد الناس نفورًا، فهم إنما وضعوه على سكة أخرى غير التي ركبتها أنت، فتصبح أنت في واد والناس في واد آخر، بل أنت تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في صناعة هذه العداوة، فمصطلح الإسلام السياسي لغم خطير لا يجوز أن نسهم في تفجيره، فنقتل أنفسنا.

والأمر ليس بأيدينا حتى نعطيه هذا الوصف أو ذاك، فالنجاة إنما تكون بتوضيح الرسالة على ما هي عليه لإبلاغها للناس نقية صافية ربانية خالية من الغلو والتطرف، السماحة شعارها، وإرادة الخير للناس دثارها، ثم نقول للعالَم: نحن مسلمون، آمنا بشمول الإسلام، ونتناول قضايا السياسة من خلال مفاصل عملها السلمي، الذي يتيح لنا فرصة تحقيق مشروعنا الحضاري الإسلامي الوسطي بكل شعبه وركائزه وقوانينه؛ وأما الآخرون الذين لا يريدون لنا أن نمارس العمل السياسي بحثًا عن تحقيق قيم الحرية والعدل والكرامة والحقوق لنترك الساحة لهم يصولون بها ويجولون، فهم يحاولون عزل المسلم عن أي حراك يتصل بالدولة والسلطان، ويبغون حصره في الدوائر غير المؤثرة، وهذا خطر عظيم، وأما طرائق التطبيق فقد اختلفت وجهات نظر المفكرين الإسلاميين فيها، فمنهم من يرى إنشاء أحزاب سياسية تكون ذراعًا للحركة، ومنهم من يرى أن على الحركة أن تقوم بهذا الدور، وهناك رُؤى أخرى ليس هنا مجال بحثها.

الإسلام السياسي من جديد

شيطنة مجموعة ظالمة من مشارق البلاد ومغاربها لمن يعملون للإسلام من أفراد وجماعات وأحزاب ومؤسسات بات أمرًا معروفًا، وهو أمر مقصود تخطيطًا ومكرًا، فليس عفويًا ولا طارئًا، وهو مسألة قديمة حديثة تتجدد بين الفينة والأخرى، وتخترع لها اللافتات المناسبة والوسائل الماكرة والآليات التي يَعرف أصحابها من أين تؤكل الكتف كيدًا وبطشًا وحقدًا وانتقامًا، وقل مثل ذلك في تلك الشعارات التي يدرسونها بدقة حتى تؤدي الغرض المطلوب من خلال خطة مدروسة ومراحل منتقاة بشكل خبيث، وتلكم هي سنة التدافع، قال

تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا، وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: آية ٤٠].

في وقتٍ ما من عصرنا الحاضر روَّجوا عن الإسلاميين أنهم أصوليون، وقاموا بحملة رهيبة مليئة بالتحريض والتشويه، وصوَّروا للناس أنهم وحوش قادمة لحرق الأخضر واليابس، وأنهم متخلفون رجعيون وظلاميون حجريون متصلبون، فدخل الناس في حيص بيص في تعريف الأصولية وجذرها، وهل هي مدح أم ذم؟ وهل هي نعت إيجابي أم سلبي؟ ومتى ظهرتْ؟ وما خصائصها ومثالبها؟ وهل ينطبق هذا على الإسلاميين أم أنه تلفيق عليهم؟ وبعد مناقشات طويلة في الدراسات والمؤتمرات والمحاضرات والأطروحات والبرامج سقط المصطلح بكل مفرداته لدى معظم المجتمعات المسلمة، فقد تبيَّن بشكل قاطع أنه لا يمت للإسلام والمسلمين بصلة، واتضح بما لا يقبل الجدل أنه مصطلح تاريخي يخص أوروبا في عصر من عصورها المظلمة يوم تولى رجال الكنيسة مقاليد الحياة بالتحالف مع الإقطاع وبثنائية رجل السياسة ورجل الدين، فأظلمت الحياة وعاش الناس في حالة بؤس، وفُصِل العلم عن الإيمان، وبرزت ظاهرة الاستغلال للدين ليأكلوا باسمه ما في أيدي الناس، وكانت هناك مظالم مركبة وحوادث جسام انتهت بثورة شعارها اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، فأراد الكائدون أن يساووا الإسلاميين بهؤلاء ويصفوهم بالأوصاف نفسها، وهذا من الافتراء البين والظلم الشديد.

وقد اقتضى استمرار الحرب لونًا جديدًا يؤدِّي إلى ديمومة هذا الصراع، فاستبدلوا بمصطلح الأصولية مصطلح الإسلام السياسي، ثم الإرهاب وهي تهمة قديمة جديدة، فاتهموا أصحاب المشروع الإسلامي الكامل بالإرهاب، وهم أبعد الناس عن هذه الفرية، فهم لها منكرون ولطريقها منتقدون. إن مصطلح الإسلام السياسي دخيل يهدف صانعوه إلى معان خطيرة، روج له قومٌ بقصد خبيث، وانساق بعض الإسلاميين خلفه بنية حسنة، وظنوا أنه مصطلح مفيد وله أغراض نبيلة، وهذا خطأ واضح، فهم لم يقفوا على حقيقة مقاصده ولم ينظروا بعمق إلى أهدافه، فشأنه شأن مصطلح الأصولية.

إن الإسلام هو الإسلام، نظام يشمل شؤون الحياة جميعًا لا يستثني مفردة منها على الإطلاق، فليس هناك إسلام عربي وآخر أعجمي، ولا إسلام صوفي وغير صوفي، ولا إسلام اجتماعي وغير اجتماعي، فلا فصل بين شؤونه إلا إذا كان في عالم التخصص وترتيب الأولويات.

واليوم يعمد قوم من الساسة والقيادات والكتاب والإعلاميين إلى شيطنة أصحاب الإسلام السياسي، ويعدون العدة لحربهم، ويشحذون لهم سكاكينهم، ويتهمونهم بشتى تهم الإرهاب؛ من هنا يظهر مقصد توصيفهم للإسلاميين ومشروعهم بأنه إسلام سياسي، فهذا ما كان يحذر منه، إذ لم يكونوا يريدون الثناء على الإسلاميين ليلجوا دائرة العمل السياسي بوصفهم معتدلين، بل جعلوا من المصطلح شبكة شر لاصطيادهم وإقحامهم في فخ مقصدهم، وهو أنهم جسم غريب في الدنيا وأصحاب مخططات هدامة، وهم عين الهلكة وعنوان الويل، وأنهم خطر على كراسي الرؤساء وعروش الملوك وعلى السياسة والاقتصاد، وكل حركة من حركات الحياة مهدَّدة بهم وبما أتوا به، فهم أخطر من السلاح الكيماوي والنووي، وبهذا يثيرون العالم عليهم، ويهيجون الدنيا لمقاومتهم والقضاء عليهم بذرائع وحجج واهية لمن أنعم النظر وتأمل بعمق، وسبب هذه الهجمة الشرسة، على الإسلاميين أنهم روح الأمل الذي يحمل على عاتقه همَّ الأمة وحق الشعوب في حياة حرة كريمة بنفَس وطني خالص وبمرجعية إسلامية ضابطة، فهنا يتحسس الطغاة الخطر من هؤلاء.

الحرب شرسة ضروس، ولو قلت: إنها غير مسبوقة فلعلي أصيب، تستهدف وجودكم أيها الإسلاميون، وتعمل للقضاء عليكم بحملة تيار لا يعرف غير الشر، فاصبروا وصابروا ورابطوا، وتمسكوا بمنهجكم الوسطي، ولا تخرجوا عن دائرة الاعتدال مهما ضغطوا عليكم، وتمسكوا بقيم الحوار بالتي هي أحسن وبمنهجكم الراشد الشامل، والنصر قادم لا محالة، (عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ؛ قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ: ((كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ))[٢].

(٢) رواه البخاري كتاب بدء الوحي، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢).

معادلات الأخذ بأسباب البقاء

رغم كلِّ هذه الهجمة الشرسة والكذب الصارخ على حركات العمل الإسلامي بمفهومه الناضج الذي يعبر عن وعي فكرة الدعوة إلى الله تعالى وطرائق مناصرة هذا الدين عبادةً لله تعالى وابتغاء رضوانه، فإنه ما زال حضور الحركات الإسلامية العاملة في هذا الميدان ملء السمع والبصر رغم شكوى كثير من أبنائها من الضعف والترهل، ولها ظهورها اللافت في ميادين عدة، ولديها شُعَب عمل متنوعة في إطار ما يعرف بالقوى الناعمة على مستوى النقابات والجمعيات والحراك الدعوي، ولا شك أن الحضور السياسي مفردة مهمة هنا لها حضورها اللافت في جملة من القضايا والمسائل، ولا أريد المبالغة في هذا المضمار المؤرق لكنها الحقيقة التي لا يجوز تجاوزها ولا النظر إليها بعين الريبة فضلًا عن السخرية والاستهزاء، فلا يحقرنَّ امرؤٌ ما بيده من قوةٍ وخير.

وكأني أنظر إلى غدٍ أمثل لهذه الأمة بجهود البررة من الإسلاميين ممن يحملون هم هذه الأمة بحكمة وموعظة حسنة وإخلاص وحماس وتخطيط وعمل وجهد وجهاد يوازنون بدقة بين لوازم التراث ومقومات المعاصرة، رائدهم الإخلاص، ومسارهم العمل الصالح، لا يفت عضدهم كيد كائد ولا مكر ماكر، ومن عادتي أني لا أحب لغة العنتريات وأرتاح لقيمة الثبات وحقيقة العمل والشجاعة الحكيمة.

خيارات الإسلام السياسي

يرى بعض الكتاب أن الإسلام السياسي ليس له سوى خيارين:

الأول: أن يذوب في السلطة، ويفيد من المساحات المتاحة له بوزارة هنا أو مسؤولية كبيرة أو صغيرة هناك، فيصبح جزءًا من النظام الحاكم مهما كان لون هذا الجزء، وهذا الخيار ثمنه معروف ونتائجه معلومة الأثر، وعواقبه مفهومة المعالم.

الثاني: أن يختاروا برامج العمل خارج إطار السلطة معارَضة ومصادمة وشدًّا وجذبًا، وهذا سيوقعهم حتمًا في دائرة الفشل الصاخب بكل تداعياته ونتائجه وآثاره المريرة، هكذا زعموا أو هذا هو ما يتصوره هذا الصنف من المنظرين.

وكلا الخيارين مرفوض لدى العاملين للإسلام في شتى ميادين الحياة.

أسباب البقاء والتقدم

ومقتضَى التدافع أن نواجه هذه الهجمة بمعادلات الأخذ بأسباب البقاء والتقدم إلى الأمام، ونمضي في طريق الأهداف المأمولة وترسيخ القيم المرسومة، ومن أسس ذلك:

أولا: العودة إلى الله تعالى والتمسك بأهداب هذا الدين القيم بإيمانٍ عميقٍ عبادةً وتذللًا ودعاءً وذكرًا وتوبةً وإنابةً إلى الله تعالى والتزامًا وتحليًّا بالفضائل وتخليًا عن الرذائل {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله -صلى الله عليه وسلم- القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: ((اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه). فما ينبغي أن يقال: نحن نتكلم عن حرب ضروس وتحديات كبرى تحاول استئصالنا، فنحتاج إلى العمل المتواصل وكيفية مواجهة التحديات، وأنت تردنا إلى الدروشة والمسكنة! فنقول: إنه بقدر حسن تمسكك بقيم التزكية وآداب السلوك تكون المقدمة الصحيحة، فهذا مفتاح الخير، لكن الخطأ أن نقتصر عليه ونحبس أنفسنا في دائرته، وهذا لا يقوله عاقل.

ثانيا: قيمة العمل بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا خيار أمام العاملين إلا أن يصمدوا ويثبتوا ويكثروا من العمل الكيفيِّ المدروس المستمر، فالديمومة سر البقاء، والانقطاع من أكبر المهالك التي تواجه العمل الإسلامي، فلنأخذ بما نطيق ولا نحمل أنفسنا ما لا قبل لنا به وفق قانون الواقعية، ولنكف عن الرغائب والسياسات الشهوية ولا نجابه نواميس الكون بل نعمل بمقتضيات السنن الربانية، ومن ذلك أن نأخذ بعالم الأسباب - في كل شيء - بأحدث ما توصل إليه العقل البشري من نتائج العلم والمعرفة وحسن الإنتاج. ومن المعلوم أن خصوم الإسلام السياسي يرون أنهم يسيرون بلا هدْيٍ ولا رشد ولا خطة ولا مشاريع ولا برامج واضحة ولا مناهج

عملية ولا رؤى منقذة، فلا يلامسون الواقع ولا يفقهون أدوات العمل فيه حسب قوانين المعاصرة ومفاهيم التطور الصحيح والأمر عند هؤلاء الإسلاميين لا يعدو مجرد شعارات تُردَّد ورايات ترفع وشارات براقة وهتافات جذابة وأناشيد منعشة وخطب حماسية لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا التبخيس من الظلم والحرب على الإسلاميين، وهو عينه حرف العربة عن مسار الحقيقة، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نفيد من هذا النقد الشديد كما أننا لا نكابر فننكر كلامهم جملة وتفصيلًا بل علينا أن نبحث عن جوانب القصور فنتجاوزها، ونعرف نقاط الضعف فنقويها، ونفتش عن مواطن الخلل فنعالجها ونرصد منافذ الخلل فنسدها، وهكذا، روى مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- (أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل: أي العمل أحب إلى الله. قال: ((أدومه وإن قل))[٣] وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة مرفوعًا ((إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه))[٤] ورواه أحمد عن أنس بلفظ ((إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق)).

ثالثا: المراجعات المستمرة والتقويم الدائم، والإفادة من التجارب، والوقوف عند الإيجابيات لتنميتها وتطويرها ورصد السلبيات والهنات والثغرات لتقليلها وتقليصها وتجاوزها ومن ذلك سماع النقد من الأخ والصديق بل حتى العدو، فرب ثغرة دلك عليها عدوك، فلا تكابر ولا تبتأس ولا تعاند والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

رابعا: الاستفادة من كل مساحة متاحة للعمل والمشاركة وفق استراتيجيات دقيقة؛ تقرر قواعد حكيمة ومفاعيل السياسة الراجحة، من مثل: متى نتصدر ومتى نكون في الصف الثاني أو الثالث، نُقدم مَن ونؤخِّر من، نتعاون مع من ونترك من كل ذلك بعيدًا عن العاطفة المجردة أو الانسياق وراء رائحة نصر هنا أو بارقة أمل هناك.

خامسا: عقد التحالفات مع المخلصين من القريبين حسب دوائر محددة بناء على دراسات معمقة وفهوم دقيقة.

سادسا: بناء شراكات مفيدة في كل مفاصل الحياة مع النظيفين في المدى الوطني الواسع، والحذر كل الحذر من التقوقع على الذات مهما كانت المسوغات؛ فهذا يعطي فرصة لعدوك ليعزلك، ويسهل عليه ضربك.

سابعا: التواصل مع الجماهير في سلال خدمتها، فالجماهير ملت الشعارات وتريد من يخدمها، ويقدم لها ما ينفعها في حياتها، فلو سلمنا بنخبوية الحركات الإسلامية فلن نسلم بإهمالها الشأن العام.

ثامنا: الكلمة المفتاحية في كثير من حراكاتنا مصدرها صناعة علاقات مميزة تحمينا من كل سوء ومكروه، وتعطينا الفرصة الكافية لنجاح المشروع، فالمفاصلة لا تعني قطع علاقتك مع من يخالفك.

تاسعا: من مشكلات التيار الإسلامي أنه يدخل أحيانًا في شرنقة طبقة المورِّطين الذين لا يتقنون سوى العواطف، ولا يجيدون سوى الاندفاعات غير المنضبطة، فالحذر كل الحذر من الوقوع في ردود أفعال غير محسوبة النتائج، فعلينا بالصبر وطول النفس ومنع عوامل الاستفزاز من أن تكون سبيلًا للانسياق وراء خيارات غير محمودة، كل ذلك مع الثبات والتمسك بالثوابت.

وخلاصة القول: إن الأخذ بأسباب النصر وعوامل النجاح؛ طريقنا إلى تجاوز هذه الهجمة الشرسة على الإسلام وأهله، وفي مقدمة أسباب النصر علاقتنا الخالصة بالله وطاعته والالتزام بمنهجه.

(٣) رواه مسلم باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل رقم (١٨٦٤) طبعة دار الجيل بيروت. ورواه البخاري حديثا آخر يقاربه في المعنى.
(٤) رواه البخاري كتاب بدء الوحي باب الدين يسر، رقم (٣٩).

فقه الأولويات

في حياة الفرد والمجتمع

د. محمد نور حمدان

دكتوراه في الفقه الإسلامي - محاضر في جامعة الزهراء.

فقه الأولويات من المصطلحات الفقهية العصرية، فعلى الداعية والفقيه أن يهتم به في دعوته وفقهه وفتاويه وفي تبليغه للمجتمع أحكامَ الشريعة، وهي إنما جاءت لتحقيق مصالح الناس في كل زمان ومكان مراعية التغيرات الزمانية والمكانية، وقد تتعارض المصالح أو المفاسد فما هو الأولى بالتقديم، وما هو الأحق بالدفع؟

سأبحث هذا الموضوع في الآتي:

أولًا: تعريف المصطلح، ثانيًا: نشأته، ثالثًا: اختلال ميزانه في حياتنا، رابعًا: أولويات الفرد والمجتمع.

أولًا: مصطلح فقه الأولويات

فقه الأولويات: هو وضع كل شيء في مرتبته بالعدل من أحكام وقيم وأعمال، ثم يقدَّم الأولى فالأولى بناءً على معايير شرعية صحيحة يهدي إليها نور الوحي وسلامة العقل، فلا يقدم غير المهمِّ على المهم، ولا المهم على الأهم، ولا المرجوح على الراجح، بل يقدَّم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، ولا يكبَّر الصغير ولا يصغَّر الكبير، بل يوضع كل شيء في موضعه بالقسطاس المستقيم.

يعتمد فقه الأولويات على معرفة الداعية أو الفقيه أحوالَ مجتمعه وحاجاته ليعامله ويعالج قضاياه بناء عليها، والفقيه ابن مجتمعه فعليه أن يعرفه ليقدم الأهم ثم المهم والأَوْلى فالأولى، فلو أن مدينة احتاجت إلى مَدْرسة فعلى الداعية أو الفقيه أن يتحدث عن أهمية بناء المدارس، وليجعلْها أولوية مقدمة على باقي المواضيع المهمة، ولو أن الحي احتاج إلى إصلاح طرقات فعلى الداعية أن يحث الناس على ضرورة تعبيد الطرقات وإصلاحها، وليجعلْها أولوية مقدمة على ما سواها، ولو أن المجتمع يعاني من داء الغلو والتطرف فعلى الفقيه أو الداعية أن يعالجه ويجعل حديثه عن الوسطية في الإسلام وسماحة الإسلام ويسره، ولو أنه يعاني من الظلم والقهر والاستبداد فليجعلْ حديثه عن الدعوة إلى القضاء على الاستبداد والظلم وإقامة العدل.

ثانيًا: نشأة مصطلح فقه الأولويات

رغم أنَّ مصطلح فقه الأولويات معاصر، وأبرز من تحدث عنه هو الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه المشهور فقه الأولويات إلا أن هذا المصطلح ورد في القرآن الكريم والسنة

النبوية؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩] ينبِّه المؤمنين إلى أن الأعمال تتفاضل عند الله تعالى رغم وجوبها، فالإيمان بالله واليوم الآخر في أعلى الدرجات ولا تساويه سقاية الحجاج وإطعامهم وبناء المسجد الحرام رغم أهميته وعظيم فضله عند الله، والجهاد في سبيل الله والإنفاق على الجهاد أولى من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجيج.

وورد في السنة أن الأعمال عند الله ليست على درجة واحدة بل ثَمَّة أعمال أولى من أعمال أخرى، وأن شعب الإيمان والواجب ليسا على مرتبة واحدة بل لها مراتب بعضها أولى من غيرها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضعٌ وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان بيَّن أن شعب الإيمان ليست على مرتبة واحدة رغم أنها كلها من درجاته، فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، ومنها إماطة الأذى ومنها الحياء والصدق والأمانة والعدل والعفة والصبر وبر الوالدين وتعظيم شعائر الله جميعها، لكنها ليست كلها في مرتبة واحدة.

وصحَّ أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (سُئل: أيُّ العمل أفضل؟ فقال: ((إيمان بالله ورسوله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حج مبرور)). فأجاب السائل بأن أفضل الأعمال الإيمان بالله والرسول ثم الجهاد ثم الحج، ولو أن رجلًا قاتل مع المسلمين ولم يكن مؤمنًا بالله ورسوله لما عُدَّ ذلك جهادًا في سبيل الله، ولو أن رجلًا حج وكان المجتمع يحتاج إلى جهاده لَأَخَلَّ بميزان الأولويات؛ فالأولويات تختلف من إنسان إلى آخر، (جاء رجل إلى النَّبي -صلى الله عليه وسلم- يستأذنه في الجهاد فسأله النبي: ((أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ففيهما فجاهد)). هذه إشارة مهمة في فقه الأولويات فقد سأله عن أحواله وأجابه بناء على أولوياته، فبِرُّ والديه مقدم على جهادِ فرضِ الكفاية، أما عندما يكون الجهاد فرضَ عين فالمرأة نفسها لا تحتاج إلى إذن زوجها، ولو جاءه سائل آخر لأجابه إجابة أخرى بناء على الأولويات كما تقدم في حديث رُتب أفضل الأعمال: الإيمان ثم الجهاد ثم الحج، ففيه إشارة إلى أن على الداعية أو الفقيه أن يعرف حال السائل ثم يجيب بناء على أولوياته وحاجاته، فقد تكون الأولوية عند رجل أن يتصدق بأمواله وعند آخر الجهاد في سبيل الله، وكذلك عليه أن يعرف حاجات المجتمع ثم يتحدث بناء على أولوياته، فلو تحدث في حي غني فعليه أن يحدثهم عن فضل الصدقة وتحريم التبذير والإسراف، فهذا أولى من الحديث عن الصبر عند الضراء رغم أنه مهمٌّ، أما لو تحدث في حي فقير فليحدِّثْهم عن الصبر وفضله، فهو أولى من الحديث عن الشكر عند السراء رغم أنَّه مهمٌّ؛ فالأولويات تختلف باختلاف الأشخاص والمناطق والمجتمعات والبلدان.

ثالثًا: اختلال ميزان فقه الأولويات في حياتنا المعاصرة

لو نظرنا في حياتنا المعاصرة لوجدنا اختلالًا كبيرًا في فقه الأولويات على مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية، فمن صور الاختلال في فقه الأولويات -كما ذكر الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه- أنَّ بعضهم يهتمُّ ببناء المساجد في أماكن فيها مساجد ويهمل بناء مؤسسات تربوية تعليمية تعلم الخير وترشد إلى الهدى وتستظل بمظلة شرع الله سبحانه وتعالى، وبعضهم يقيم بين الناس معارك حامية الوطيس من أجل مسائل جزئية أو خلافية ويهمل أصول الإسلام الكبرى وقضاياه الملحة..،

فمثلا أكبر همه البحث عن موضع لبس الساعة: في اليد اليمنى أم اليسرى؟! والأكل على المنضدة والجلوس على الكرسي للطعام يدخل في التشبه بالكفار أم لا؟! وغيرها من مسائل أعطيت قدرًا أكبر من حجمها الحقيقي مقارنة بالمسائل المهمة الملحة الأخرى، فضلًا عما يترتب على الانشغال بها من تضييع الجهود والأوقات وإهدار الطاقات وتمزيق الجماعات.

ومنهم من يهتمُّ بالنوافل أكثر من اهتمامه بالفرائض والواجبات كالذين يكثرون من الأذكار والتسابيح والأوراد ولم يولوا هذا الاهتمام لكثير من الفرائض خصوصًا الاجتماعية مثل بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار والرحمة بالضُّعفاء ورعاية اليتامى والمساكين، ويحج نفلًا بينما أولاد بلده في المخيمات لا مأوى لهم ولا طعام، ويهتم بمسائل خلافية جزئية فرعية بينما يتقاتل المسلمون ويتخاصمون، ويهتم بقضايا مهمة في الدين لكن ثَمَّةَ أولوية لقضايا أخرى تُعنَى بواقع المسلمين وإصلاح أحوالهم، ويعتني بالعبادات الفردية كالصلاة والذِّكر ويهمل بعض العبادات الاجتماعية التي يتعدى نفعها كالفقه والإصلاح بين الناس وجهاد الوعي، والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالصبر والمرحمة، والدعوة إلى العدل والشورى ورعاية حقوق الإنسان عامة والضعيف خاصة.

رابعًا: أولويات الفرد والمجتمع

من خلال استقراء الشريعة الإسلامية نجد أن فيها أولويات اهتم الإسلام بها وأعطاها أهمية أكثر من غيرها، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب فقه الأولويات ومنها:

١ ـ أولوية الكيف على الكم؛ فقدَّمَ الإسلام الاهتمام بالجودة والإتقان على العدد والكمية، قال صلى الله عليه وسلم:((إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملًا أن يتقنه))[1] وأولوية الكيف كانت واضحة في غزوة بدر، فرغم قلة عدد المسلمين إلا إنهم انتصروا على المشركين بفضل ثباتهم على الحق وثباتهم على مبادئهم، وفي غزوة حنين كادوا يخسرون المعركة عندما ظنوا أن النصر سيكون بعددهم؛ لذلك على المسلمين أن يهتموا بالنوعية والكيفية أكثر من العدد والكمية فأن يصلي المسلم ركعتي نفل بخشوع وإتقان خير له من أن يصلي عشرين ركعة خفيفة لا خشوع فيها، وأن يفهم آية قرآنية ويطبقها خير له من أن يحفظ آيات كثيرة بلا فهم.

٢ـ أولوية العلم على العمل؛ فالعلم مقدم، وعلى الإنسان أن يتعلم ثم يبلغ ما علم، وكم من إنسان جاهل أساء إلى الدين من حيث يظن أنه يحسن العمل، ((القضاة ثلاثة: قاض في الجنة وقاضيان في النار، فالذي قضى للناس على جهل هو في النار))، فلا يجوز للداعية أن يسلك سبيل الدعوة حتى يتعلم أحكام الدعوة، ولَأَنْ يتعلم آية واحدةً ويفقهها خيرٌ له من أن يبلِّغ عشر آيات وهو جاهل بهنَّ، وكم من دورة دعوية سريعة خرَّجت دعاة وقضاة جاهلين كانت سببًا في استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وكم من داعية جاهل كان سببا في توجيه الشباب نحو التطرف والغلو بسبب جهله؛ فالخوارج رغم كثرة أعمالهم الصالحة إلا إنهم ضلوا بسبب جهلهم وعدم فهمهم للقرآن ومخالفتهم كبار الصحابة من العلماء والفقهاء والمفسرين.

٣ـ أولوية الفهم على مجرد الحفظ؛ فالفهم مقدم، وفهم القرآن وفقهه وتطبيقه وتفسير آياته وفهم معانيها ومقاصدها وتدبر القرآن هو المطلوب، وخاصة أن الوسائل الحديثة للحفظ كثيرة، نعم إن الحفظ مطلوب ويثاب فاعله ويشفع له يوم القيامة، إلا إن الحفظ المطلوب هو الحفظ مع الفهم أما الحفظ بلا فهم فليس مطلوبًا؛ فعلى المؤسسات القرآنية أن تهتم بتعليم الأجيال فهم القرآن ومعانيه ومقاصده وكيفية تطبيقه في حياتهم مع حفظه، فالأمة لا تحتاج إلى حفظة بمقدار حاجتها إلى علماء وفقهاء ودعاة.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٤٩٣١).

٤ـ أولوية الدراسة والتخطيط؛ فالعمل المنظم المخطط هو المطلوب، أما العمل العشوائي غير المنظم فلا يجوز، وهذا كان حال الرسول -صلى الله عليه وسلم- في سيرته، بل إن الدعوة الإسلامية كانت قائمة على التخطيط والتنظيم وتقسيمها إلى مكية ومدنية ووجود خصائص وأحكام تناسب كل مرحلة دليل على تنظيم وتخطيط وإتقان، فعلى القيادات قبل أن يقودوا أمرًا أو يبدؤوا معركة أن يكون ذلك عن تخطيط وتنظيم وشورى ودراسة لمكان القوة والضعف.

٥ـ أولوية العمل الدائم على المنقطع؛ يقول صلى الله عليه وسلم: ((قليل دائم خير من كثير منقطع))، فأَنْ يصوم المسلم الاثنين والخميس دائمًا خيرٌ له من أن يصوم شهرًا ثم يعجز عن الصيام، وأن يقوم في كل ليلة ركعتين خير له من أن يقوم ليلة واحدة ثم ينقطع عن القيام، فأحب الأعمال إلى الله أدومُها وإن قلّ.

٦ـ أولوية العمل المتعدي النفع على القاصر؛ فالعمل الذي ينتفع منه المسلمون أولى من العمل القاصر النفع على الفرد من ذلك أن إصلاح ذات البين أفضل من الصيام والصلاة ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ((إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، قَالَ: وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الإصلاح بين المسلمين في مرتبة متقدمة على الصلاة والصيام والصدقة لأن الإصلاح ينتفع به جميع المسلمين، وأما النفل فينتفع به فاعله وحده، وروي مرفوعًا: (رجل عالم خير من ألف رجل عابد) لأن العالم ينفع بعلمه خلق كثير أما العابد فينتفع بعبادته وحده، فعلى المسلمين إعطاء الأولوية للأعمال التي فيها نفع عام وخدمة لعباد المسلمين على العبادات الفردية الخاصة.

٧ـ أولوية العمل في زمن الفتن؛ فالمجتمع يحتاج إلى الدعاة والفقهاء والعلماء في زمن الفتن والاضطرابات السياسية ليبينوا لهم الحق من الباطل والخطأ من الصحيح، إن العمل في زمن الفتن هو الجهاد الحقيقي، أما الاعتزال الوارد في السنة فالمقصود منه عند اشتباه الحق بين الطرفين وعدم القدرة على تمييز الحق من الباطل، أما عند تمييز الحق من الباطل فالمؤمن مأمور بالعمل والوقوف إلى جانب الحق حتى ينتصر، وهذا هو الجهاد الأكبر، فإن لم يستطع أن ينصر الحق وجب عليه أن ينكر المنكر بقلبه.

٨ـ أولوية الواجبات على السنن، وتقديم الواجبات الاجتماعية على النوافل، ومن الواجبات الاجتماعية (نصرة المظلوم- صلة الرحم- الإصلاح بين الناس- قضاء حوائج الناس- التعليم- إغاثة الملهوف- عيادة المرضى- مواساة المصابين).

٩ـ أولوية فرض العين على فرض الكفاية.

١٠ـ أولوية حقوق الجماعة على حقوق الأفراد؛ فالمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، ومصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الأفراد عند التعارض لكن بشرط ألا تهدر المصلحة الخاصة.

هذه هي أهم الأولويات التي يجب على المؤسسات الدينية والدعوية أن تعمل بها في وقتٍ تتزاحم فيه الفروض والواجبات، وعلى الدعاة والفقهاء أن يفقهوها في دعوتهم، فتلك هي الحكمة المطلوبة منهم ليحققوا الإصلاح في مجتمعاتهم ويكتبَ لهم القبول في الأرض وفي السماء.

تاريخنا

بين الاعتبار والتوظيف

د. حذيفة عكاش

دكتوراه في الفقه المقارن، مدير عام مؤسسة رؤية للثقافة والإعلام

تكمن أهمية التاريخ في كونه بيت الخبرة البشرية، فهو يثبت ويوثِّق حركة المجتمعات والدول والأمم في أيام سلمها وحربها وأوقات ازدهارها وتطورها وانتكاسها وتقهقرها، وعندما نقوم برصد الخط البياني لحركة تاريخ الأمم والدول صعودًا وهبوطًا، وتحليلِ الأسباب التي أدت إلى الهبوط والتخلف والضعف، وإحصاءِ العوامل التي أسهمت بالصعود والتطور والتقدم والقوة والازدهار؛ نستخلص سننًا وقواعد اجتماعية تفيدنا في حياتنا، فنتجنب أسباب التخلف والضعف، ونحرص على الالتزام بعوامل النهوض والقوة؛ وبهذا ينتقل علم التاريخ من حفظ الروايات والقصص إلى الاعتبار والحركة والفائدة، فتصبح قراءته مفيدةً عمليًّا، فلا يعود قصصًا وروايات وأحداثًا مضَت، بل يغدو قواعد وسننًا وعاداتٍ وأسبابًا مرتبطة بنتائجها، فتحكم تلك القواعدُ الواقعَ وتمكننا ملاحظتها من استشراف المستقبل.

وهنا نؤكد أمرين:

أولًا: للتخلف أسباب لا سبب واحد فقط كما أن للنهوض عواملَ لا عاملًا واحدًا فحسب، هذه حقيقة تساعدنا عند وضع الخطط الإصلاحية التي تلاحظ ذلك.

ثانيا: نؤكد تعدد مسارات وجوانب التاريخ، ففيه الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي والنفسي والديني...، وكل مسار يؤثر تغيره سلبًا أو إيجابًا على بقية المسارات.

الأنواع الثلاثة في قراءة التاريخ

ثمة ثلاثة أنواع لقراءة التاريخ، قراءتان على طرفي نقيض، وأخرى ثالثة متوسطة بينهما، وعلى العموم فإن ثمة أسلوبان ينتشران بكثرة في قراءة التاريخ وكتابته وروايته، يجمع بينهما أنهما قراءة انتقائية توظيفية هما:

الأولى: قراءة مناقبية تقديسية

في القراءة المناقبية التقديسية تُستدعَى الصفحات المشرقة من التاريخ بحيث يظهر أنه تاريخ أبيض ناصع بكل جزئياته ومراحله، وأن أشخاصه ملائكة، فكله انتصارات وبطولات وتضحيات ومآثر ومفاخر، وغالب من كتب التاريخ بهذه الطريقة من المعاصرين كتاب إسلاميون غيارَى ليبعثوا العزة والفخر في نفوس مسلمي القرن المنصرم، وما زالت هذه القراءة مستمرة عند بعضهم حتى أيامنا هذه، وسببها قلة الصور المشرقة في واقع المسلمين إذ سادَ الضعف والتبعية والانكسار أمام الآخر، والمرء حين يفلس واقعه من المفاخر يعود بذكرياته إلى أيام العز والإنتاج والعطاء، كما فعل جملة من مصنفي العصر الحديث حينما أرادوا إعادة التوازن النفسي للشباب المسلم أمام الانبهار والتبعية للغرب والشعور بالمهانة. وقد ظهر هذا المنهج بصفته ردةَ فعلٍ تجاه هجوم بربريٍّ على العالم الإسلامي وتراثه في ذاك القرن، ولهذه القراءة سلبيات ستأتي.

الثانية: قراءة كيدية تدنيسية

في القراءة التدنيسية للماضي تُستدعَى صفحاتُ التاريخ السوداء، وتُعرَضُ معًا لتقدِّمَ تاريخَنا على أنه تاريخ زُمرةٍ من الشياطين، يُقتل فيه الخصوم حتى الأقرباء والعلماء والصالحين، وتُتَّبَع فيه الشهوات من نساء وخمور وتبديد للمال، وتعم فيه الحروب الداخلية والظلم والفساد والاستبداد، وغالب أرباب هذه القراءة لهم معتقدات معادية للإسلام.

الثالثة: القراءة الموضوعية المنصِفة

إن القراءة الموضوعية المنصفة للتاريخ هي القراءة الحقيقية التي نحتاجها اليوم ففيها تُنقل حوادث التاريخ كما رُويت، ثم تُدقَّق بموضوعية تامة للاقتراب من الواقع والحقيقة قدر المستطاع، مع يقيننا بأن ادعاء دقة المرويات التاريخية وصدقها كما رويت ليس بأمر يسير إلا ما ورد في السيرة النبوية وبعض الأحداث الخاصة.

إن واجبنا العلمي والأخلاقي يحتم علينا أن نروي التاريخ رواية بشرية تؤمن أنَّ أشخاصَ تاريخنا بشرٌ لا ملائكة ولا شياطين، بشر يصيبون ويخطئون ويحرصون على مبادئهم ويرعَون مصالحهم، وهم في صراع دائم بين المبادئ والمصالح كسائر البشر، أحيانا ترجح في تصرفاتهم المصالحُ وأحيانا ترجح المبادئ، هذا مع إيماننا بامتياز القرون الإسلامية الأولى التي شهد لها النبي -صلى الله عليه وسلم- عن باقي فترات التاريخ؛ فيظهر من خلال تلك القراءة أنَّ تاريخنا تاريخ تجارب بشرية تحاول الالتزام بالمنهج الإسلامي، فتخطئ وتصيب، وأنه تاريخ بشريٌّ خالصٌ لا أبيض ملائكي ولا أسود شيطانيٌّ، يقترب من البياض أحيانًا ومن السواد أحيانًا بحسب التزامه بالمنهج الإسلامي والقيم الربانية، وهذا أمر طبيعي؛ فعالَمُ القِيَم والمُثُل والكمال المطلق عالمٌ مثالي، أما الواقع ففيه وفيه، فيكون المجتمع فاضلًا كلما اقترب من عالم المُثُل، وتقل فضيلته كلما ابتعد.

مفاسد القراءة الانتقائية للتاريخ

عندما نتأمل القراءة التمجيدية -الأكثر انتشارًا في الساحة الإسلامية اليوم- والقراءةَ التدنيسية -التي يقودها أعداء الإسلام غالبًا- نجد لها تأثيرًا سلبيًّا كبيرا على نمط تفكير المسلمين، فمن مفاسدها:

١- البعد عن الحقيقة:

وذلك من خلال التساهل في التثبت من صحةِ أخبارٍ تعضد ما يقصده المؤلف تمجيدًا أو تشويهًا.

٢- شيوع الانتقائية:

فالقراءة التدنيسية مثلا تنقل صفحات من التاريخ ولا ترويه كاملًا بحلوه ومرِّه ولحظاتِ ضعفه وقوته، وتقتصر على التاريخ السياسي وما فيه من حروبٍ ونزاعاتٍ بين الدول والجماعات ومكائد الكرسي وقتل المعارضين والخارجين على الدولة، وتركِّزُ على حياة القصور التي يُتَوَسع فيها بالشهوات المباحات أو المحرمات أحيانًا، وتُغفِل التاريخ الاجتماعي والدعَوي والعلمي.

٣- القراءة التوظيفية:

فهي تروي التاريخ لتوظيفه في التقديس للتفاخر والحث على استعادة تلك الأمجاد السالفة، أو في التدنيس للتشويه والحض على تجاوز ذلك التاريخ وتركه، فنلحظ في هذين المنهجين تضخيم الحوادث والشخصيات أو تحقيرها بحسب نهج القراءة التي يسلكها المؤلف.

٤- إبطال أهمِّ فائدة لقراءة التاريخ:

وهي الاعتبارُ والاستفادة من تجاربه واستخلاصُ قواعد تحكم حركة البشر والمجتمعات والدول والأمم، فلو اقتصرنا على المراحل المزدهرة أو المتخلفة فكيف سنعرف أسباب الضعف والتخلف والانكسار أو عوامل الرفعة والقوة والتقدم والحضارة؟! إن القراءة التمجيدية الخالصة للتاريخ تمنعنا من معرفة أخطاء الماضي، ومن لا يقرأ التاريخ يكرّره، فتقع الأخطاء نفسها دون

أن نحاول تجاوزها بإيجاد حلول لها، فإذا بنا نعيد المقدمات نفسها ونريد نتائج مختلفة رغم أن هذا من المحال؛ فسلوك الطرق والأساليب نفسها سيؤدي -حتما- إلى النتائج السابقة ذاتها.

٥- هدم الرموز والطعن في القدوات:

إن القراءة التدنيسية لتاريخنا تَهدم الرموز الملْهِمة وتُعْدِم القدوات المحفزة وتُلغي النماذج الرائدة، فهوية كل أمة تتشكل من دينها ومبادئها ولغتها وتاريخها، وبتشويه تاريخها تُشوَّه هويتها ويضعف انتماء أبنائها إليها وكأن قيمنا الإسلامية لا أثر لها على من ينتمي إليها، فتلك دعوة غير مباشرة لاحتقار الذات والانبهار بالآخر، وغرضها تجاوز هذا التاريخ وفتح صفحة جديدة بالانتماء لحضارة متقدمة يقصدون بها الحضارة الغربية غالبًا.

٦- الدعوة إلى اليأس والتشاؤم:

إن القراءة التمجيدية تُظهر واقعنا أَسْودَ كالحًا مُظلمًا؛ فتاريخُنا مجموعة من القادة الأبطال المخلصين، وواقعنا مجموعة من القادة الشياطين سواء في ذلك الحكام ورؤساء الدول وقيادات المجتمع والجماعات ومديرو المنظمات والمؤسسات، فيصيبنا الإحباط من واقعنا، ويتساءل الإنسان بيأس أين نحن من عظماء تاريخنا؟! ولعل هذا هو سببُ ما نشاهده من اعتياد الناس اليوم إسقاط أي قائد من قادتنا لأصغر خطأ، فنحن لم نقرأ تاريخنا بموضوعية، ولا نعرف أن أولئك القادة في تاريخنا كانوا بشرًا لهم أخطاؤهم كما لقادتنا المعاصرين المخلصين أخطاء.

ختام بنقطتين

الأولى: تاريخُنا إجمالًا مصدرُ فخرٍ واعتزاز لنا نحن معاشر المسلمين، فهو تاريخ أسلافنا وأجدادنا الذين أسسوا حضارة شهد لها القاصي والداني، ونعتقد أنه أفضل من تاريخ غيرنا من الأمم ممن عاش الحقبة التاريخية نفسها، فهو التجربة البشرية التي طبقت مبادئ الإسلام وقيمه وأحكامه، ونشرت دين الله في بقاع المعمورة، لكن هذا الافتخار ليس مدعاة لأن نحتقر غيرَنا من الأمم بل هو مدعاة لإنصافهم، ولا يدفعنا حبنا وعاطفتنا نحو أمتنا أن نظلم غيرنا ونجحف، كما لا يدفعنا إعجابنا بما قدمه الآخرون في مجالات العلم المختلفة إلى الانبهار غير المنطقي بهم، فالباطل الخالص نادر في الحياة كما أن الحق الخالص نادر كذلك، وكما أن للمسلمين تاريخًا يفتخرون به فإن للأمم الأخرى ما يدعوهم للفخر أيضًا وإلا لما قامت دولهم ولا استقرت، وقد علَّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- الإنصاف في الحكم على المخالفين، فشهد لِمَلِك غير مسلم يومئذٍ بأنه عادل ولا يُظلَم عنده أحدٌ وهو النجاشي، وشهد الصحابيُّ عمرو بن العاص للروم أن فيهم خصالًا أهَّلتهم لأن يكونوا من أكثر الناس عند قيام الساعة، فقال: (إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ: وأمنعُهم من ظلم الملوك)[1] وقال ابن تيمية: (إنَّ الله لَينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة).

الثانية: من الظلم محاكمة تاريخنا بقيم عصرنا الحاضر وثقافته، بل ينبغي قراءة تاريخنا في سياقه التاريخي وفق ثقافة عصره، ومقارنته بتاريخ الأمم الأخرى في زمانهم لا بحاضرها. نعم يمكن بل يجب محاكمة تاريخنا وواقعنا للمنهج الإسلامي والمبادئ الإسلامية، فميزاننا هو المبادئ والقيم والأحكام الإسلامية لا التجارب التاريخية.

(١) صحيح مسلم (٢٨٩٨).

الأحاديث النبوية الشريفة درر ثمينة، تحتاج إلى عقل وفكر يغوص لالتقاطها وإثبات صفائها وبهائها واستنباط معانيها، لكن هذه المعاني قد لا تبدو لأول وهلة، فيحتاج الأمر للتفكر وإعمال العقل لاستجلائها، ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري في صحيحه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلاَةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)[1].

وأقصى ما تكلم عنه شراح الحديث هو بيان قدرة الله في إنطاق هذه البقرة، وهل هذا موضع استغراب وتعجب للمؤمن أم هو من بدهيات الإيمان التي لا يتم إلا بها؟ قال تعالى: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ [فصلت:٢١] غيرَ أن هذا الحديث يحمل في طياته معاني جليلة أخرى لم يتطرق إليها شراح الحديث سوى إيماءات يسيرة لا تشفي الغليلَ، ومما يُستفاد من هذا الحديث:

١ - بشاعةُ جريمةِ الظلم وسبلُ دفعها:

لكلِّ مخلوقٍ وظيفةٌ يؤدِّيها قد لا يقوم بها غيره، ومن الظلم تسخيرُ المخلوق لغيرِ ما خلق له، ولا يجوز استخدامه في شيءٍ من ذلك، فهذه البقرة عندما ركبها صاحبها وضربها -وهي غير مهيأة للحمل والركوب بحكم تكوينها- أنطقها الله فدافعت عن نفسها وجهرت بالحق ولم ترض بالظلم الذي وقع عليها، فَقَالَتْ: (إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ) وفي هذا تعليمٌ للأمَّةِ ألَّا ترضخ للظلم وألَّا تستكين للظالم وأن تدافع عن حقوقها المشروعة وتطالب بها؛ فلا يليق بالإنسان المكرَّم أن يسكت على الظلم أو استلاب حقوقه وحقوق أمته وله أجر الشهادة إن قتل دونها، بينما البقرة لم تسكت على

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء بعد باب حديث الغار، رقم (٣٤٧١) ترقيم فتح الباري.

الظلم، روى النسائي بسند صحيح عن سويد بن مقرن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ))[٢]. قال محمود سامي البارودي:

إذا المرءُ لم يدفَعْ يدَ الجور إن سطَتْ عليه فلا يأسفْ إذا ضاعَ مجدُهُ

وأقتلُ داءٍ رؤيةُ المرءِ ظالما يسيءُ ويُتلى في المحافلِ حمدُهُ

قال الإمام الذهبي في كتاب الكبائر: (فهذه بقرة أنطقها الله في الدنيا، تدافع عن نفسها، بأنها لا تؤذى ولا تستعمل في غير ما خلقت له، فمن كلفها غير طاقتها أو ضربها بغير حق فيوم القيامة تقتص منه بقدر ضربه وتعذيبه)[٣]. وقال الإمام القرطبي في تفسيره: (فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل)[٤]. قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى البخاري عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه: ((اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ))[٥] وقد هيأ الله للإنسان وسائل للركوب والحمل، قال تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٨] فمن الظلم البين تحميل الحيوان ما لا يطيق، روى أبو داود بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قال: (أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ...، فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَمَسَحَ ذِفْرَيهِ فَسَكَتَ، فَقَالَ: ((مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: ((أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))[٦].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بمصر : (بلغني أن بمصر إبلًا نقَّالاتٍ يُحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل) وكان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون، فكان إذا استعاروه منه قال: لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا، فإنه لا يطيق أكثر من ذلك، فلما حضرته الوفاة قال: يا دمون لا تخاصمني غدًا عند ربي، فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق. [رواه أبو الحسن الأخميمي في حديثه (٦٣/ ١) وهو في تاريخ دمشق لابن عساكر].

٢- احترام التخصص:

وزع الله سبحانه المواهب والقدرات في البشر توزيعًا عادلًا وجعله متنوعًا لتتم عمارة الأرض، ولو تأملنا قانون التسخير لوجدناه من القوانين البديعة التي هيأها الله لتسير حياة البشر بيسر وسهولة، ولولا هذا القانون لوقع الناس في حرج ومشقة ولما استقامت حياتهم، قال تعالى:

(٢) سنن النسائي، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، باب من قتل دون ماله رقم (٤٠٩٣).
(٣) الكبائر للإمام الذهبي ص ٢٠٠ طبعة دار الندوة الجديدة - بيروت.
(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٧٢) طبعة دار عالم الكتب - الرياض.
(٥) صحيح البخاري باب فسنيسره لليسرى رقم (٤٩٤٩).
(٦) سنن أبي داود بَابُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ رقم (٢٥٤٩).

{وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: ٣٢].

والتخصص منذ القِدَم له مدارسه وتلامذته، وصار في زمننا أكثر تميزًا، فللعلم الواحد أكثر من تخصص، كان الطبيب مثلا يعالج كل شيء، واليوم اتسعت علوم الطب كثيرًا، ففي طبِّ القلبِ تخصصاتٌ متنوعة وكذا في طب العظام والأعصاب وغيرها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُدرك هذا، فكان يوزع المهمات على أصحابه، كلٌ حسبما وهبه الله من إمكانيات، وهذا من وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وفيه أيضًا إيماءة لطيفة وهي إبراز المربِّي مزايا أتباعِه وطلابِه ليكونوا مثالَ القدوة والأسوة الحسنة للأمة.

ومن الخطأ البيِّن والمشكلات القديمة الجديدة أن يتكلم الإنسان في غير تخصصه، قال ابن حجر: (من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب)، وقل مثل ذلك في تحميل الإنسان ما لا يطيق من علوم وأعمال وصناعات، قال ابن سينا: (ليست كل صناعة يرومها الصبي ممكنةً له مواتية، ولكن ينبغي له أن يزاول ما شاكل طبعه وناسبه). فهذا الخطأ باب شرٍّ وفساد.

وجدير بالأمة التي تريد التقدم فتح الباب لإعادة النظر في مناهج التعليم وطرق التدريس والمواد التي يميل إليها الطالب ويرغب بها. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يطبِّق هذا المبدأ تطبيقًا صارمًا، روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)). وروى مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ)). وروى مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ((إِنَّا -وَاللهِ- لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ)).

٣- مكانة أي بكر وعمر رضي الله عنهما:

في الحديث تنويه بمنزلة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- وعلو كعبهما في الإيمان والتصديق، وهذا شأن كل مؤمن، فما جاء به النبي كله حق، وجميع ما أخبر به صدق لا يتم إيمان المؤمن إلا بالتصديق به مهما كان الخبر مستغرَبًا، قال الإمام النووي في شرح مسلم: (قَالَ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ ثِقَة بِهِمَا لِعِلْمِهِ بِصِدْقِ إِيمَانهمَا وَقُوَّة يَقِينهمَا وَكَمَال مَعْرِفَتهمَا لِعَظِيمِ سُلْطَان اللَّه وَكَمَال قُدْرَته، فَفِيهِ فَضِيلَة ظَاهِرَة لِأَبِي بَكْر وَعُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِيهِ جَوَاز كَرَامَات الْأَوْلِيَاء وَخَرْق الْعَوَائِد، وَهُوَ مَذْهَب أَهْل الْحَقِّ)[٧]. وهذا غيض من فيض مما نستفيده من هذا الحديث.

(٧) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٥٦) دار إحياء التراث العربي - بيروت.

كيف يحتل الإيرانيون مدينة حلب؟

محمد علي النجار

يتضمن البحث مقدمة تاريخية لبيان علاقة إيران -ممثِّلةً للشيعة- بمدينة حلب تاريخيًّا، ثم سبعة عناوين تشرح واقع وجود الاحتلال الإيراني في مدينة حلب، وهي:

أولًا: أهمية حلب الاستراتيجية لإيران.

ثانيًا: متى بدأ العمل الإيراني في حلب؟

ثالثًا: الوجود الإيراني في حلب مطلعَ الثورة السورية.

رابعًا: إيران بعد احتلال حلب الشرقية،

خامسًا: أماكن وجود الإيرانيين في مدينة حلب.

سادسًا: شراء العقارات في حلب.

سابعًا: جهود مقاومة وسائل الاحتلال الإيراني في حلب.

مقدمة تاريخية

فُتحت مدينة حلب في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه- على يد القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه- عام ٦٣٧م-١٦ه، وشاركه في فتحها كل من خالد بن الوليد وعياض بن غنم -رضي الله عنهما-، واستشهد في فتحها مئات من جيش المسلمين؛ ذلك أن أهل المدينة وسكانها صالحوا جيش المسلمين بينما رفض قائد الحامية الرومية التسليم وتحصن في قلعتها أشهرًا طويلة، وحصلت بينه وبين المسلمين مواقع كثيرة قتل فيها كثير من الصحابة والتابعين.

بعد فتح المدينة غدت حلب جزءًا من أراضي الخلافة الراشدة فالدولة الأموية ثم العباسية، ولما دب الضعف والانحدار في الخلافة العباسية استقل بها الحمدانيون إضافة إلى الموصل ومدن أخرى من الشام وأطراف العراق، وذلك في القرن العاشر الميلادي أواخرَ القرن الثالث وبداية الرابع الهجري.

بداية الوجود الشيعي في مدينة حلب:

كان الحمدانيون يميلون إلى التشيع ويضمُّون كل أصناف الشيعة وغير الشيعة لما اشتهر عنهم من تسامح، وقد تأثر الناس بحكمهم فتشيع كثيرون، ويشهد التاريخ أن تشيعهم كان تشيعًا عربيًّا خالصًا لا تداخله الشعوبية وما تنطوي عليه من حقد على العرب واستحلالٍ لدمائهم تحت تأويلات دينية مختلفة كما هو شأنُ التشيع الفارسي، يقول ابن كثير يصف سيف الدولة الحمداني: (أَحَدُ الْأُمَرَاءِ الشُّجْعَانِ وَالْمُلُوكِ الْكَثِيرِي

الْإِحْسَانِ عَلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ تَشَيُّعٍ، وَقَدْ ملك دمشق في بعض السنين، واتفق له أشياء غَرِيبَةٌ، مِنْهَا أَنَّ خَطِيبَهُ كَانَ مُصَنِّفَ الْخُطَبِ النباتية أحد الفصحاء البلغاء، ومنها أن شاعره كان المتنبي، ومنها أن مطربه كان أبا نصر الفارابيِّ، وكان سيف الدولة كَرِيمًا جَوَادًا مُعْطِيًا لِلْجَزِيلِ)[1].

بزوال الدولة الحمدانية في مطلع القرن الخامس الهجري حكم بنو مرداس مدينة حلب نصف قرن من الزمان وكانوا يميلون إلى التشيع أيضًا، ولكن مؤسس حكمهم صالح بن مرداس كان على خلاف كبير مع الفاطميين وأتباعهم، وانتصر عليهم في معارك كثيرة، ثم قُتل وهو يحاربهم في معركة الأقحوانة في طبرية عام ٤٢٠هـ، وهذا ما جعل أولاده من بعده يعطون زمام أمورهم للبيزنطيين تارة وللفاطميين تارة أخرى، ثم بدخول الدولة السلجوقية إلى بلاد الشام انتهى حكم بني مرداس في حلب كما انتهى حكم البويهيين الشيعة في العراق.

في أواخر القرن الخامس بدأت القوة السياسية الشيعية بالاضمحلال، ولم تمض بضعةُ عقود حتى أصبحت قوتهم السياسية الطارئة أثرًا بعد عين إثر دخول جيش الزنكيين مصر عام ٥٦٢هـ بقيادة شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فعادت المنطقة إلى الحكم السني من جديد وما زالت.

إن هذه الفترة المؤقتة من سيطرة الشيعة السياسية على مقاليد الحكم في بلدان عربية منها مدينة حلب هو ما يثير شهية الإيرانيين وأطماعهم لتكرار التجربة؛ فيقوم الإيرانيون اليوم بإيهام أتباع مشروعهم بأن هذه الأراضي التي حكمها في زمنٍ ما أمراء شيعة هي حقهم التاريخي الذي انتزعه أهل السنة منهم، وهذا نتاجٌ طبيعي للَطيمةِ المظلومية التي يقوم عليه النهج الشيعي عمومًا.

(١) البداية والنهاية لابن كثير، طبعة دار الفكر (١١/ ٢٦٣).

أوَّلًا: أهمية حلب الاستراتيجية لإيران

مدينة حلب ذات أهمية استراتيجية للأطماع الإيرانية في سورية، وتكمن هذه الأهمية في كون حلب إحدى المدن الأربع التي تضمن لإيران السيطرة التامة على سورية لتحويلها لاحقًا إلى مستعمرة فارسية بحكم الأمرِ الواقع بغض النظر عن الرضا الدولي من عدمه، فالزوايا الأربع للاحتلال الإيراني في سورية تتمركز في كل من دمشق جنوبًا وحلب شمالًا ودير الزور شرقًا واللاذقية غربًا، فالإيرانيون يدركون أن وجود هذه المدن تحت قبضتهم يضمن لهم قطع الطريق ما بين تركيا والعرب وفتح طريق جديد للمشروع الفارسي إلى البحر المتوسط، وقد قام نظام الأسد بتسليم ميناء اللاذقية -جزئيا- للإيرانيين، وأقرَّ اتفاقية مد خط السكك الحديدية من إيران إليها عبر العراق.

ثانيًا: متى بدأ العمل الإيراني في حلب؟

في عهد حافظ الأسد كانت هناك تحركات محدودة للإيرانيين من خلال مركز ثقافي ومستشفى وبعض الأعمال الخيرية وترميم بعض المواقع الأثرية ذات الأهمية التاريخية لهم، أما في عهد بشار فقد انتقل الإيرانيون إلى تنظيم المد الشيعي في حلب من خلال شخصيات شيعية معروفة في بلدة نبل وغيرها، وكان قطاع حلب تابعًا -نوعا ما- لحزب الله أو القيادة الدينية الإيرانية في لبنان، ومن الشخصيات التي ظهرت أسماؤها في البرنامج الإيراني آنذاك رئيس بلدية نبل المهندس علي بلوة وشريكه المهندس رضا باشا الذي كان مسؤولًا مباشرًا عن العمل في حلب، وكان يحضر اجتماعات دورية مع حزب الله في لبنان.

وبحسب تصريحات بعض المهندسين في منطقة إعزاز فإنَّ اجتماعاتٍ مهنية عدة جمعتهم بمهندسي نُبُّل، وكان هدفهم

في كثير من الجلسات جذب مهندسي المنطقة إلى مشروعهم الإيراني، حتى قال أحد المهندسين لزملائهم الشيعة في إحدى الجلسات: لنطوِ الخلافات الدينية التي بيننا ولنمنعها من السيطرة على اجتماعاتنا! وسألهم أحد الحاضرين: هل تريدون من الناس أن تتشيع؟ فأجاب أحد مهندسي الشيعة: وما المانع من ذلك؟ ألم تكن حلب كلها للشيعة يومًا، فما المانع من عودتها كذلك مرة أخرى؟

في غفلة من الشعب السوري كان عملاء إيران يعملون على التوغل بخبث في مدينة حلب، فكان لهم ذلك، وقد استخدم عناصر المشروع الإيراني من أبناء نبل وغيرها صلاتهم المهنية والاجتماعية لتعريف الناس على المشروع الشيعي، ولإيجاد حالة تعاطف وقبول أو عدم رفض له على الأقل خلال سنوات وجود بشار الأسد على رأس النظام الطائفي.

بالمال والوعود بالجاه والسلطة استقطب المشروع الإيراني شخصيات دينية عدة في حلب لتقوم بتحضير المجتمع لقبول الوجود الإيراني في المدينة، وكان من أهم هذه الشخصيات محمود العكام وابنه علي وأحمد حسون، ويعمل تحت أيديهم مجموعة من طلاب العلم والجامعيين وبعض المثقفين باسم باحثين، كان منهم المهندس علي منصور كيالي الذي نذر نفسه لهدم كل ثوابت العقيدة السنية بتوجيه من العكام وحسون كما ذكر ذلك لي بلسانه في بعض الجلسات الخاصة في حلب.

في تلك الفترة قامت بعثات التبشير الرافضي باستهداف الأرياف الحلبية الفقيرة النائية بدعوة سكانها إلى التشيع، فكانت تدفع مبالغ مالية طائلة للعوائل المتشيعة، وتتخذ من حب آل البيت وسيلة للدخول إلى عقول الناس وقلوبهم، فاستجاب لهم في هذه الأرياف أعداد من الناس كما حدث في مدن سورية أخرى. وكل من وقف في وجه هذا الغزو من علماء حلب وأئمة المساجد فيها كانت مخابرات الأسد تودعه السجون بتهمة إثارة النعرات الطائفية، فَزُجَّ بعدد كبير منهم في السجون أو حقق معهم بهذه التهمة.

صناعة تنظيمات تكفيرية في حلب

دأبت إيران دائما على العناية ببذور تنظيم القاعدة واستخدامها في خدمة مصالحها، وقد كانت بداية ذلك إِثْر الغزو الأمريكي لأفغانستان وبلغ ذروته عقب احتلال العراق عام ٢٠٠٣ يوم بدأ بعض ضباط المخابرات السورية المرتبطين بإيران بتأسيس تجمعات لفكر القاعدة في كلٍّ من مركز مدينة حلب والأرياف المحيطة بها مثل مارع والباب وتل رفعت وفي أحياء هنانو والصاخور والشيخ سعيد وغيرها، كانت هذه التجمعات التكفيرية ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بالمخابرات السورية عبر شخصيات جُنِّدَتْ لنشر هذا الفكر وتنظيمه رغم أن مخابرات الأسد تتظاهر بملاحقتها وإعلان الحرب عليها، وكانت هذه التنظيمات مشروعًا مشتركًا بين نظام الأسد وإيران، فقد ملؤوها بعناصر مخابراتية بغيةَ استخدامها في مهامٍّ مستقبلية غير معروفة، وكان لهذه التنظيمات مهمتان:

الأولى: نشر التكفير في المجتمع السني بغية إيجاد مسوِّغ للانتشار الشيعي في حلب، إذ لا يجد النظام الإيراني وسيلة لتجنيد الشيعة العرب في مشروعه أفضل من تنظيم القاعدة الذي يعلن تكفير الشيعة واستحلال دمائهم، وإن انتشار هذا الفكر في بعض المجتمعات السنية ييسر للمبشرين الإيرانيين عملية إقناع عوام الناس بدعوى تطرف المنهج السني ودمويَّته واعتدال المنهج الرافضي واستقامته.

الثانية: كانت إيران تبغي من صناعة هذه التجمعات تفخيخ المجتمع السني السوري على المدى البعيد كما فعلت في المجتمع العراقي، فقد استخدمت تنظيم القاعدة لإشعال الفتنة الطائفية بين سنة العراق وشيعته وإرغام الشيعة العرب على الدخول في عباءتها، وقد حصد الإيرانيون والأسد ثمار

ذلك في الثورة السورية، فتسلل عناصر هذه التجمعات والتنظيمات المرتبطة بالمخابرات أو ضحاياهم إلى صفوف الشعب في مطلع الثورة بدافع ديني تكفيري أو بأوامر عليا من أجهزة الاستخبارات التي يرتبطون بها، واستقدموا تنظيم القاعدة من العراق المعروف بصلاته الشهيرة بالحرس الثوري الإيراني، فأسسوا تنظيم جبهة النصرة، ثم انشقوا عنه إثر الخلاف الشهير بينهم وانضموا بالعشرات إلى تنظيم داعش، وقد قاموا بمهمتهم أتم قيام.

لم يكن التحضير لشق المجتمع السوري وليد أحداث الثورة بل تم التجهيز لذلك منذ بداية عهد بشار الأسد، وظهر جليًّا بعد عام ٢٠٠٥ في مناطق مختلفة من مدينة حلب، وحصدوا ثماره في منتصف الثورة، فقد كانت إيران تدرك أن وجود هذه التنظيمات التكفيرية في المجتمع السوري كفيل بهدم بنيانه ومنعه من جمع كلمته أو توحيد جهوده في أي مطالب مستقبلية للتحرر من النظام الطائفي ودول الاحتلال التي تقوم بحمايته.

ثالثًا: الوجود الإيراني في حلب مطلعَ الثورة السورية

كانت التوجيهات والخبرات الإيرانية التي يستخدمها الأسد واضحة منذ بداية الثورة السورية، وفي حلب لم يظهر وجود حقيقي لإيران قبل دخول الجيش الحر إلى مركز المدينة، ولما دخل لم تحاول إيران أن تأخذ دورا محوريا بحسب ما يظن البعض، لكن الواقع كان عكس ذلك.

بحسب معلومات حصلتُ عليها في السجن أثناء توقيفي في فرع الأمن العسكري بحلب منتصف عام ٢٠١٤ كان الإيراني المعروف باسم سيد جواد أو الحاج جواد صاحب السلطة العليا في غرفة عمليات حلب التابعة لنظام الأسد منذ العام ٢٠١٢، وقد أسهمت توجيهاته بشكل أساسي في إيقاف تقدم الجيش الحر وإدارة معارك النظام ضده.

منذ عام ٢٠١٢ قام المدعو سيد جواد بتشكيل ميليشيات خاصة تابعة له تعرفتُ على بعض عناصرها في السجن، وهذا يكشف العلاقات الإيرانية القديمة التي استطاعت تكوين ميليشيات سرية مخلصة لها فورَ دخول رجلها إلى حلب، فقد اعتمد في ميليشياته على بعض الشباب من أبناء ريف حلب الشرقي، إذ كانت تعاني من التجهيل المستمر تحت سلطة الأسد الأب والابن، وكانت هدفًا لتشييع أهلها في عهد الأسد الابن. ولما خرجت من السجن عام ٢٠١٤م حدثت بعض قادة الجيش الحر عن سيد جواد ودوره في إدارة المعارك ضدهم، فنفوا وجود أي أخبار عن رجل كهذا.

وبعد عامٍ من دخول الجيش الحر إلى حلب قام الإيرانيون بتشكيل تنظيمات شيعية محضة من الجهاديين العراقيين والمتشيعين السوريين والمرتزقة وأبناء الطائفة النصيرية الذين نزحوا من خان العسل إلى حلب، وكان من أبرزها ميليشيا لواء عمار بن ياسر ولواء أبي الفضل العباس الذي نشأ في دمشق وكانت له مجموعات تتبعه في حلب.

كان النقص الحاد في جيش الأسد يجبر الميليشيات الإيرانية على الظهور بشكل أوضح في المشهد العسكري السوري، فبرزت ميليشيات حزب الله اللبنانية وحركة النجباء العراقية وعصائب أهل الحق وكتائب الزينبيين الباكستانية وكتيبة الفاطميين الأفغانية وفرق فيلق القدس التابعة لقاسم سليماني وتنظيمات أخرى بأسماء مختلفة، وكان ضابط الحرس الثوري المدعو سيد جواد دائمًا هو القائد الإيراني الأبرز في شمال سورية، وإذ استطاع الجيش الحر قتل عدد من ضباط الحرس الثوري الإيراني بقي سيد جواد في منصبه حتى سقوط حلب في يد تحالف داعمي الأسد وميليشياتهم، يومئذٍ تحدثت عنه وسائل إعلامية عدة أولَ مرة عام ٢٠١٦ بعد تقريرات مفصلة

أظهرتها المعارضة الإيرانية عن تاريخه، وقد حاز لقب سفاح حلب نظرا لمشاركته المباشرة بجرائم الحرب التي حدثت أثناء سيطرة الميليشيات الطائفية على أحياء المدينة الشرقية.

رابعًا: إيران بعد احتلال حلب الشرقية

شاركت إيران بقوة في معركة احتلال حلب وتهجير أهلها لمركزيتها في المخطط الإيراني كما سبق، وحاولت فرض سيطرتها على كامل المدينة لكن الصراع الروسي الإيراني حال دون ذلك، وطردتهم شرطة المحتل الروسي من بعض أحيائها الشرقية إبان احتلالهم المدينة؛ فاتبع الاحتلال الإيراني أساليب أكثر بطئًا ومكرًا مما كان قد أعد نفسه له، واستخدم لتنفيذ خطة السيطرة على مدينة حلب أساليب جديدة تناسب واقع وجود ثلاثة أجسام مسيطرة على الأرض؛ ميليشيات كلٍّ من إيران الشيعية والاحتلال الروسي وميليشيات الأسد الطائفية.

الغزو الثقافي الإيراني في حلب

يكمن خطر المشروع الإيراني في ذراعه الدينية، صحيح أنه مشروع ذو طابع عسكري سياسي لكن خطره الأكبر في أدواته الدينية؛ إذ يستخدمها في التمهيد لسيطرته العسكرية طويلة الأمد، فهي تكفل له تأسيس قاعدة شعبية مرتبطة به على المدى القريب والبعيد؛ لهذا بذل الإيرانيون في حلب جهودًا واسعة لإقامة الندوات الدينية والمسرحيات الطائفية التي تستهدف الأطفال والناشئة، وعقدوا شراكات مع أئمة مساجد متلونين أو خائفين من البطش الإيراني، واستخدموا منابرهم لبثِّ أفكارهم بين الناس، وغالبًا ما يشفع الإيرانيون أعمالهم الثقافية بدعم مادي من خلال الرواتب واستغلال المعونات الدولية، ورغم أن التبشير الثقافي الإيراني ركنٌ أساس في سياسة التوسع الإيرانية إلا أنها كانت أكثر وضوحًا في حلب بغية خرْقِ مناطق سيطرة الروس والأسد والتسلل نحوها بخُطى محكمة.

يقوم الغزو الإيراني بتبني الأطفال اليتامى وكفالتهم والعناية بعوائلهم ليؤسس منهم جيشًا طائفيا تابعًا للجيش الإيراني كالذي أسسوه في كل من باكستان وأفغانستان واستخدموه في احتلال المدن السورية، وإن الجيش الذي يؤسسونه من النَّشأِ والشباب لا يعدو كونه خطوة معتادة في مشروع بناء جيوش إيرانية سريعة الحركة في معظم مناطق الشرق الأوسط للقيام بتنفيذ مخطط إيران دون حاجة لاستخدام جيشها الرسمي، وكان من آخر مظاهر الاختراق الإيراني للحياة الثقافية والدينية في حلب إرسال فريق من القراء الإيرانيين إلى المساجد في مدينة حلب في شهر رمضان، وكان لإذاعة وطن إِفْ إِمْ حلقة خاصة عن كيفية استغلال إيران مناسبةَ شهر رمضان لتعزيز توغلها الثقافي في المجتمع السوري، وغالبا ما يتخذ الغزو الثقافي من المشاهد الشيعية المزعومة مراكز لانطلاقه كما هو الحال في مشهد النقطة بحلب في منطقة الزبدية، إذ يزعم الإيرانيون وجود نقطة من دم سيدنا الحسين رضي الله عنه فيه.

خامسًا: أماكن وجود الإيرانيين في مدينة حلب

حاول الإيرانيُّون أن يكونوا في كل أحياء حلب لكن منافسة شريكهم المحتل الروسي أرغمتهم على الاكتفاء بأماكن محددة مدروسة، وتشكل بمجموعها أخطبوطًا يحيط بأطراف المدينة ويطوِّقها ويتغلغل في قلبها أحيانًا، فمن المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية التي سيطروا عليها مطار حلب الدولي وأطرافه ومطار النيرب ومخيمه، وعلى هذا المحور حاولوا السيطرة على المناطق الواقعة على الطريق بين حلب والمطار خلال الشهور الماضية لكنهم اشتبكوا مع الميليشيات الروسية ولم يتمكنوا من السيطرة عليها كما ذكرت أورينت في تقريرها نقلًا عن مراسلين محليين، وجاء في التقرير:

(الميليشيات الإيرانية بدأت مخططًا للسيطرة على الأحياء الواقعة في محيط مطار حلب الدولي بهدف منع الهجمات التي تشنها الميليشيات المدعومة روسيًّا على المطار بين الفينة والأخرى، خصوصًا أن الأخيرة حاولت خلال الأسبوعين الماضيين اقتحام المطار من الجهة الغربية في محاولة للسيطرة عليه...، وأضافت المصادر أنَّ أوتوستراد حلب-دمشق يُعَدُّ الخط الفاصل بشكل تقريبي بين مناطق الطرفين، فالميليشيات الإيرانية تسيطر على المطارين الدولي والنيرب العسكري، إضافةً للسيطرة على مخيم النيرب وصولًا لأحياء جنوب شرقي حلب الشيخ سعيد ومنطقة معمل الإسمنت وبعدها ريف حلب الجنوبي، إضافةً لامتدادها في الشمال الغربي في كل من المدينة الصناعية وحندرات وباشكوي وتل مصيبين حيث تبدو السيطرة الإيرانية على شكل دائرة غير مغلقة تحيط بمدينة حلب).

وكشفت زيارةُ وزير الدفاع الإيراني لحلب في شهر آب عام ٢٠١٨م حجم السيطرة الإيرانية على المدينة، فقد دخلها كما يدخل أي مدينة في إيران باستقبال وحشود وزيارات وشعارات إيرانية بحتة، ومِن أحياءِ حلب الغربيةِ التي فيها إيرانيون حي الموغامبو وحلب الجديدة والشهباء، إذ اشتروا فيها عقارات كثيرة باهظة الثمن بحسب بعض المصادر.

في وسط المدينة وضعت إيران يدها على مناطق كثيرة، واشترت عقارات ذات رمزية تاريخية في حياة الحلبيين كتلك التي على أطراف القلعة والجامع الكبير والأسواق القديمة، وكان لمؤسسات آغا خان استثمارات عدة في أطراف قلعة حلب والمدينة القديمة، فقامت الشركات الإيرانية بمشاركته في بعضها، من ذلك -كما في جريدة المدن الإلكترونية- عملية ترميم سوق السقطية المغلق بالاشتراك بين هيئة إعادة الإعمار الإيرانية ومؤسسة آغا خان للخدمات الثقافية.

وليس ببعيد عن المدينة القديمة وضَع الإيرانيون أيديهم على مناطق عدة في وسط حلب وشرقها، منها حي الإذاعة والزبدية والمشهد وخاصة حول مسجد النقطة سالف الذكر، حيث قامت الميليشيات الإيرانية متمثلة بلواء الباقر وحزب الله السوري باحتلال مئات المنازل في حلب الشرقية بعد سقوطها بأيديهم، ووُزِّع جزء منها عام ٢٠١٨ على شيعة كفريا والفوعة القادمين من ريف إدلب، وتوزعت مناطق توطينهم على أحياء الصالحين والسكري والفردوس والمشهد والميسر وفقًا لجريدة المدن.

في ريف حلب:

تسعى إيران للسيطرة على أحياء مدينة حلب وتطويق الريف للهيمنة عليه، فوضعت موطئ قدم لنفسها في أماكن مختلفة، ومن أهمها الشيخ نجار وأطراف جبرين والقرى القريبة من مطار حلب الدولي، هذا بالإضافة إلى قرى عدة في نواحي الحاضر والزربة وتل الضمان في ريف حلب الجنوبي وسنجار وأبو ظهور وما يجاورها، وكشفت مصادر خاصة لبلدي نيوز أن ميليشيات الحرس الثوري الإيراني انسحبت من شمال حماة وشرقها باتجاه سنجار وأبو ظهور بريف إدلب الشرقي وتل الضمان بريف حلب الجنوبي للتمركز ضمن المناطق المذكورة، وأشارت المصادر إلى أنَّ القوات القادمة إلى هذه المناطق تضمنت أكثر من ٢٥٠٠ عنصر من الجنسيات الأفغانية والعراقية التي منحت وثائق وهويات سورية وبطاقات تثبت هويتهم على أنهم سوريون من ملاك الفرقة الرابعة برتب عسكرية للتغطية على جنسياتهم الأصلية.

وبحسب الأستاذ عبد الغفور أحد أبناء منطقة الحاضر فإن الإيرانيين يحتلون بيوت المهجرين ويتخذونها مراكز عسكرية لهم، لكنهم في الوقت ذاته -على خلاف ميليشياتهم العراقية- يحسنون معاملة الناس في مناطق سيطرتهم، ويقدمون مساعدات

مالية وعينية للنازحين بغية جرهم إلى التشيع، وهذا ما يحدث فعلًا تحت ضغط الحاجة والانبهار بالقوة المسيطرة.

وفي الريف يسيطر الإيرانيون على مدينة نبل وقرية الزهراء شمال حلب، وتتجه أنظارهم لضم المناطق المجاورة إلى سيطرتهم مثل بيانون وما حولها وخاصة بعد سقوط هذه المناطق بيد النظام مؤخرا، إذ لم تضح بعد صورة السيطرة فيها.

سادسًا: شراء العقارات في حلب

لم يُرصد إقبال الإيرانيين على شراء عقارات كثيرة في أرياف حلب كما في أطراف المطار والشيخ نجار حيث المنطقة الصناعية، فقد أطلقت طهران يدَ رجال أعمال تابعين لها أو معروفين بولائهم المشترك لها ولنظام الأسد لشراء عقارات في أحياء مختلفة من مدينة حلب.

طريقة شراء العقارات:

ذكرت بعض المصادر المحلية في حلب أن شراء العقارات غالبًا ما يكون عن طريق وسطاء سوريين؛ تجار أو مكاتب عقارية، ثم تُسلَّم لاحقًا للإيرانيين، ومن أشهر الشركات العقارية الناشطة في هذا المجال شركات حسام قاطرجي -عضو مجلس الشعب عن محافظة حلب- وأخويه براء ومحمد آغا، إذ يقومون بشراء العقارات باسم شركاتهم مباشرةً أو عن طريق مكاتب مرتبطة بهم، ثم يسلمونها إلى الإيرانيين، ووفقًا للمصادر ذاتها فإن إحدى شركات القاطرجي اشترت مبنًى في منطقة سبع بحرات بقيمة سبعة ملايين دولار -حسب الشائعات- في إشارةٍ واضحة إلى حجم الأموال التي تبذل في مدينة حلب للسيطرة عليها.

في عملية السيطرة على عقارات مدينة حلب يحاول الإيرانيون جعل احتلالهم للمدينة قانونيًّا بحتًا؛ فغالبًا لا يشترون إلا العقارات ذات الملكية القطعية الطابو الأخضر، ويرفضون شراء الملكيات الأدنى حكم محكمة، ويدفعون مبالغ عالية أكثر من السعر المتعارف عليه في السوق.

وبعد شراء العقارات تُسلَّم لإيرانيين ومقاتلين من ميليشيات مجنَّسة تحمل الأوراق السورية الرسمية، وبعضها يُسجل باسم أشخاص من شيعة نبل والزهراء، وبحسب الناشط الحلبي صبحي: فقد أصبح من المعتاد أن ترى عسكريًّا إيرانيًّا يحمل الجنسية السورية، ويسكن بيتًا بقيمة مليون دولار في أحياء حلب الغربية، ويذهب إلى عمله العسكري ويعود كأي مواطنٍ سوريٍّ.

هل هناك إرغام على البيع؟

بحسب الأخبار الواردة من حلب ليس هناك إرغام مباشر على البيع -عمومًا- وإنما يتم إلجاء الناس إلى البيع بوسائل مختلفة تؤدي إلى نتيجة الإرغام ذاتها، من هذه الإجراءات:

أوَّلًا: رغم قدرة النظام نسبيًّا على تحسين الأوضاع في مناطقه، فهو مصِرٌّ على زيادة سوئها بغية إكراه فريق من الناس على الهجرة وبيع ما يملكون، خاصة مع تسلط الميليشيات المسلحة على مؤسسات العمل الظاهرة من محال ومصانع.

ثانيًا: تقوم الميليشيات الطائفية والأفرع الأمنية بخطف أبناء العائلات الميسورة مرة بعد مرة وطلب أموال طائلة؛ فيرغمونهم على التفكير بالهجرة أو بيع بعض عقاراتهم واستخدام أموالهم في إنقاذ أنفسهم وأولادهم.

ثالثًا: تمنع القرارات التي يصدرها النظام الكثير من الملاك من استصلاح ما تهدم من بيوتهم أو محلاتهم التجارية؛ فيُضطرون إلى بيعها، بينما تحصل الشركات الإيرانية والمرتبطون بها على التراخيص اللازمة لترميم هذه الأبنية بعد السيطرة عليها.

بحسب ما أفاد المواطن الحلبي محمد أحد ملاك العقارات في مناطق حلب الغربية: عَرَض عليه أحد المكاتب التي تَتَمَلَّك للإيرانيين قائلًا: لماذا تعيش في حلب وأنت إنسان ميسور؟ من

يملك كل هذا المال لا يعيش في مدينة كهذه! فاعتذر بأن أولاده ما زالوا في المدارس ولديه كثير من العقارات، فما كان من المكتب العقاري إلا أن قال له: إن شئت أستطيع أن أحضر لك من يشتري منك كل عقاراتك بالسعر الذي تطلبه بل بأكثر من سعرها الحقيقي، ونحول لك الأموال إلى أي دولة تختارها.

مقاومة الأهالي للمخطط الإيراني:

الشعب السوري شعب واعٍ عمومًا رغم أميَّةِ التجهيل الرسمية التي مُنِيَ بها بعضهم خلال الخمسين السنة الماضية...، فالناس في حلب يرفضون عمليات البيع بمقدار ما يملكون من قدرة على التحمل، لكن الفقر والمبالغ المالية العالية ووجود سماسرة سوريين لا يصرحون بشراء العقارات للإيرانيين يجعل بعض الملاك يبيعون جزءًا من عقاراتهم.

إلى ماذا ستؤدي عمليات البيع؟

إن حرص الإيرانيين على التملك الرسمي وبجنسيات سورية في شتى أحياء حلب أو ذات الرمزية التاريخية كأطراف القلعة والجامع الأموي لَيَجْعَلُ من الصعب التغلب على هذه الحالة قانونيًّا في نيرِ فوضى تعيشها البلد، وخاصة إذا علمنا أن مجمل دوائر النفوس المدنية تُسهِم بتجنيس الإيرانيين، وتعمل الفرقة الرابعة بقيادة ماهر الأسد على منح الميليشيات الإيرانية الحليفة لها بطاقات شخصية مدنية أو عسكرية سورية تغطي بها جنسياتها المختلفة.

سابعًا: جهود مقاومة وسائل الاحتلال الإيراني في حلب

بحسب الواقع ما مِنْ جهودٍ كافية لمقاومة وسائل الاحتلال الإيراني في حلب سوى ما تنقله وسائل إخبارية معارضة من حوادث تظهر شيئا من الاحتلال الإيراني للمدينة، وبعض الجهود المؤسساتية البسيطة كمشروع المجلس الإسلامي السوري الذي يقوم به المهندس مطيع البطين لملاحقة الاحتلال الإيراني، وهو مشروع توعوي بالدرجة الأولى، وله جانب قانوني بالدرجة الثانية إذ يعمل على جمع الأدلة القانونية لإبطال التملك الإيراني في سورية، لكنه يهتم بمدينة دمشق وريفها أكثر من غيرها، وبحسب بعض الناشطين السوريين فإن مواجهة هذا المشروع يجب أن تكون على محورين:

الأول اجتماعي: ويقوم على التوعية الدائمة للناس بالأطماع الإيرانية وخطرها على الجيل السوري الناشئ، والدعم غير المباشر للسكان الأصليين في حلب عبر جمعيات خيرية ومدارس إسلامية لمواجهة الغزو الثقافي الإيراني.

الثاني قانوني: وهي خطوة صعبة جدا نظرا للأسلوب الذي يتبعه الإيرانيون في حلب، ولعل يمكن إلغاء كل هذه العقود عبر إعلان سورية دولة محتلة...، وهذا سيُبطل تلقائيًّا كل عقود قوات المحتل الناشئة في جحيم احتلاله لسورية.

خاتمة:

إن ما يقوم به الإيرانيون في مدينة حلب يقومون به في مدن سورية أخرى، ولكن يختلف حجم الإنفاق على الاحتلال من مدينة لأخرى وقد حظيت حلب كأختها دمشق بشر هذا الإنفاق وأخبثه، وإن وعي شعبنا بأساليب المحتل وألاعيبه لهو الخطوة الأولى لمواجهة هذا الاحتلال مهما بلغ من القوة وبلغنا من الضعف. وأما الخطوة الثانية للمواجهة الفعالة فإنها لا تتم إلا بالتنسيق والتحالف بين شرائح الشعب السوري في الداخل والخارج، وكلما أسرعنا في بناء هذا التحالف كلما كان خلاص بلادنا وشعبنا أسرع

الأحزابُ في إِدْلِب

د. عبد الجواد حردان

مدرس الفقه وأصوله في جامعة سوتجي إمام / قهرمان مرعش.

في وقت الرَّخاء يَسَعُنا التعددُ والتنوع والاختلاف في كلِّ ما لا قطع فيه من أمور الدنيا والدِّين؛ فَلَنا في المتغيرات والظنِّيات سَعَةٌ وفي الثوابت والقطعيات عِصْمة، وأمَّا في الشِّدَّة فللشَّدائد ضروراتٌ يتعين علينا جميعًا فيها أن نَدِين لاتفاقِ أكثرية المجتهدين أو لقرارِ أغلبية أهل الحل والعقد أو رأيِ العدول من الخبراء ذوي البصيرة النافذة وسراة القوم ورؤوسهم أو لحكمِ الحاكم الناجم عن أحد هذه الثلاثة؛ فإنَّ من شأن حكم أو قرار أو رأيٍ منبثق عن شورى كهذه أن يرفع الخلاف، لا سيما ما كان منه في جلبِ مصلحةٍ أو درءِ مفسدةٍ عامَّةٍ كليةٍ ضروريةٍ حيالَ واقعةٍ قد تستأصل شأفة جمٍّ غفير من الأمة وتُنزِّل منزلةَ وباءٍ فتَّاكٍ لا يُبقي ولا يذر.

وإذا كان يلزم مَن تولَّى حارَّها أن يتولَّى قارَّها فإنَّ واقعةً كهذه ما زال يُصلَى بنيرانها وسمومها أحرارُ سورية في إدلب وغيرِها لَتَقْطَعُ بوجوبِ انقياد القومِ جميعًا رعاةً مفترضين ورعيَّة تائهةً لمبدأ الشورى، وإنها لَفريضةٌ تحتِّمُ عليهم أن ينفروا جميعًا نفيرًا فكريًّا عامًّا يبحث عن سبُل البقاء الفرديِّ والجماعيِّ ودرء الفناء الكليِّ والثوريِّ والتاريخيِّ سِلْمًا أو عنوةً، وأَنْ يستحدِثُوا آلياتٍ متاحةً تستخدم مُدْخَلاتٍ واقعية، وتَعِدُ بمُخرجاتٍ عمليَّة تقرِّرُ مصيرَ الملايين وتنقذهم من غياهب التيه وأحابيل المرجفين المروِّجين للعودة إلى الرِّقِّ ومجاهيل الرُّعب.

خماسيةُ المعاذير والمسالِك البديلة

للنهوض بفريضةِ شورى البحثِ عن سبلِ البقاء طرائقُ عدَّة أوْسَعَها بحثًا السياسيُّون والكُتَّابُ مثل محمد المختار الشنقيطي وزهير سالم وفايز الدويري وغيرهم من المُعْنِيِّين بالشأنِ السوري في الصحف الغربية والعربية ومراكز البحوث، وفَصَّلوا بإسهابٍ أَوْجُهَهَا وأَوْجَهَها منذ أن اغتِيلَت حلب عام ٢٠١٦م بمخالبِ الأحزاب، وأَنذرُوا مَن بيدهم السلاح مِنْ أيَّامٍ في إدلب كأيامِ حلب وأشدّ. هذا وليس وراء ترك تلكم الفريضة في نازلَتنا هذه سوى مسلكَين:

المسلك الأول: أنْ يغدو الرعاة والرعية وسراة القوم وسوقتهم غنمًا ترقب الذَّبح وتموت كل يوم ألف ميتة، وإنَّه لَتفريطٌ في المسؤوليات العينيَّة والكفائية لَن تجبرَه ناهيك عن أن تغفرَه حجج داحضة كخماسية المعاذير التالية:

أ- قسمتُنا لأنفسنا في مأساتنا هذه إلى مدنيين وعسكريين ومقيمين ولاجئين أو نازحين وحُسَيْنِيِّين ومعتزلة، وتَبَرُّؤُنا من تجارِ السلاح والسياسةِ والمصالحِ والدَّمِ والدِّين.

ب- براءةُ قومٍ آخرين من الثورة والثائرين ومن العسكرة والعسكريين، وتذرُّعهم بسببية موهومةٍ لذلك كلِّه اعتبارًا منهم بالمآلات بعد وقوعها، وهم فئة أعمت قلوبهم مصالح خاصة وطقوسٌ كاذبة، وجمَّدَ عقولَهم فقهٌ باردٌ أو دفينةٌ مُضِلَّة لشيخ هنا وآخر هناك؛ ولستُ أعني بهم المطبوعَ على قلوبهم ومؤازِري السفاحين وكَهَنَتَهم وبناتِهم الراقصات المزغردات يوم احتلال حلب ومجازر إدلب نشوةً بمآسٍ لا تحيط بها وصفًا لغات البشرية وآدابها وفنونها!

ت- النـدب والشـجب والسـبُّ واللعـن لإخـوةٍ لنـا في النسـب أو الوطـن أو الجغرافيـة أو الديـن، أهـدروا دماءَنـا وغـدروا بنـا، فَنَحـروا ثورتَنـا بأيديهـم وأيدينـا جـرَّاء خـوفٍ موهـومٍ عـلى عـروشٍ أو قـروش أو إذعانًـا وعبوديَّـةً منَّـا لـولاءِ قـومٍ منهـم، أو يعقـل هـذا منَّـا ومـا قامـت ثوراتنـا إلا بحنَـا عـن الحريـة الحقَّـةِ لعَلَّنـا نشـعر يومًـا أننـا كِـرامٌ مـن جنـس البـشر؟

ث- جلـد الـذَّاتِ وعـضُّ الأنامـل والتغنِّـي والتمنِّـي بِلَـوْ وليـتَ ولعـلَّ مـن غـير تقييـم جامـعٍ وتقويـم جالـبٍ دافـعٍ، ثـم التـذرع بالمؤامـرة مـع لطـمٍ وعويـل دون فقـهٍ للسـنن الإلهيـة والاجتماعيـة وبـلا تعويـلٍ عـلى الثوابـت والمتغـيرات السياسـية العالَميـة ودون اقتنـاص لمسـتجدَّاتها بمجهـرٍ بحثـيٍّ كاشـفٍ للمؤثِّـرات والخِطـط والتوجُّهـات لـدى القُـوى الدوليـة لا سـيما الصهيونيـة.

ج- الشـتمُ والإدانـةُ والتخويـنُ لجـيرانٍ وإخـوانٍ لنـا اجتهـدوا في تحقيـق مصالحهـم ومصالحنـا؛ فأصابـوا وأخطـؤوا، وتأخَّـروا ثـم أقدَمـوا فتقدَّمـوا، وأحجمـوا لمسـوِّغات معقولـة مُقْنعـة وأخـرى مجهولـة مُقَنَّعـة، وأحسـنوا الظـنَّ فوثِقـوا بِـرُوم العـصرِ ثـم بِرُوسـه وفرسـه ففُجِعـوا ونُكِبـوا بالنفـسِ والنفيـس، ومـا يزالـون يحسـنون حتَّـى نُبَـادَ ويُـرْزَؤُوا! هـذا ناهيـك عـن وقوفِهـم عـلى تشرذُمِنـا وتفرُّقنـا أيـدي سَـبَا تفرُّقًـا نصـبَ لـكل حـارةٍ عقيـدًا أو عميـلًا مـن ورائـه رعـاع أو مُخلِصـون سُـذَّج أو نفعيُّـون أو سـفَّاحونَ مُبَرمجـون.

وأمَّـا نحـن فـما شـكرْنا ولا عذَرْنـا ولا نقَدْنـا ولا نصحنـا لهـم، بـل حمَّلْناهـم مـا لا يطيقـون وسـاءت ظنُونُنَـا فيهـم حتـى مُنِـي شـعبُنا كلُّـه أو جُلُّـه بمتلازمـةِ المظلوميـة والمؤامـرةِ وعمَـى الألـوان؛ فاسـودَّ في أعيننـا كلُّ شيء، وبدأنـا نكـذِّب كل مـا يعِـدُ بـه الصديـق ونصـدِّق كلَّ مـا يهـذي بـه العـدوُّ!

ويْ كأنَّنـا مـا زلْنـا نملـك خيـارًا أقـوى أو أنكـى وأسـلمْنا قيادَنـا وأرواحنـا ومصيرَنـا وثورتنـا إلى مـن اتخذنـاه وليَّ أمـرٍ أو أبًـا ملزمًـا بحمايتنـا ونصرنـا عـلى عدونـا! هـذا كلُّـه بينـما سـائر العـرب والمسـلمين سـادِرُون وفي أهوائهـم وأوهامهـم غارقـون، بـل إنَّ في جامعتهـم ومؤسسـاتهم مـن يشـدُّ أَزْرَ عدوِّنـا ويتكبَّـدُ نفقـاتِ سـلاحه الفتَّـاك! وليـس في ذلـك كلِّـه مـا يمنـح صكـوك الغفـران لمـن تـردَّد منَّـا أو مـن جيراننـا المخلِصـين أو خُـدِعَ فتأخَّـر في اتخـاذ قـرارات مصيريَّـةٍ منـذ سـنواتٍ؛ ليحقـق المأمـول أو بعضَـه ويُبـصر المسـتور أو جُلَّـه قبـل أن تقـوم القائمـة!

المسـلك الآخَـر: أن يعجَـل الرعـاة والسـراة المكلَّفـون بالاجتهـاد إلى ربهـم ليَـبْرَؤُوا مـن تبعـات هـلاك الأمـة متبرِّئـين مِـن واجباتهـم متجاهلـينَ مسـؤولياتهم بنـاءً عـلى حسـاباتٍ خاطئـةٍ أو مخطئـة وتصـوراتٍ واهمـة أو موبـوءة، أو متدثِّريـن بالعجـز وبتعـذّرِ قيامهـم بمبـادرةِ إنقـاذٍ آخِـر رمـقٍ فينـا، علـمًا أنَّ حُججهـم تلـك تُعَـد هروبًـا مـن المسـؤولية وتجاهـلًا لواجـب الوقـت وتعاميًـا عـن السـنن الكونيـة والتشريعيـة والاجتماعيـة.

ولسـتُ أدري مـا الـذي يحـول بينهـم وبـين أن يقدمـوا خططًـا واقعيـة للحيلولـة دونَ تلـك الإبـادة، ويُعِـدُّوا أنفسـهم لأخـرى محتملـة، ويحتاطـوا بثالثـةٍ بديلـة مـن شـأنها أن تُقـدِّمَ أطروحـاتٍ وحلـولًا فرديَّـةً أو جماعيـةً؛ لتُعـرَض عـلى أوسـع نطـاق في سـياق مُداولـةٍ منظَّمـةٍ مشـفوعةٍ بإعـلامٍ مهنـيٍّ وإسـنادٍ شـعبيٍّ وعقـلٍ جمعـيٍّ ونشـاطٍ ثـوريٍّ وحـراك سـياسيٍّ عـلى المسـتوى الـدوليِّ.

من شورى الخندق إلى إدلب

مـاذا يتوقَّـع أن يحـدُثَ ويتغـيَّر لـو أنَّ فئـةً أو أفـرادًا أو طائفـةً واعيـةً بـادرت لتقـوِّي بسـلاحِ العقـل والشـورى والخـبرة والدراسـات السـابقة شـوكةَ ثلـةٍ ثابتـةٍ مرابطـةٍ؟ أوَليـس كثـيرٌ ممـا حـلَّ بالمسـتضعفين في سـورية وليبيـا وغيرهمـا نتاجًـا محتومًـا ملازمًـا لطبائـع الاسـتبداد بالقـرارِ وللتفـرق وسـوء الظَّـنِّ واسـتغلالِ مرتكـزَاتٍ عـدَّةٍ بغيـةَ تضليـلِ العامَّـة وتخديرِهـم وتعطيـلِ العقـل الجمعـيِّ، وزِد عليـه الإغـلاقَ المحكـم لنوافـذ الاتصـال بمراكـز الدراسـات وبالمفكريـن النافذيـن العارفـين خبايـا القـرار الـدولي وخفايـا الحـراك المخابـراتي وخطـط المحتـل الصهيـوني وعملائـه؟ لقـد كانـت المـداولات والخِـبراتُ في شـورى الخنـدق وأضرابهـا عصمـةً للأمـة أَنْ تغـور أو تبيـدَ، قـال سـلمان: (إنـا كنا بـأرض فارس إذا حوصرنـا وتخوفنـا الخيـل خندقنـا علينـا، فهـل لـك يـا رسـول الله أن نخنـدق؟)[1]، فهـذا فـردٌ أنقـذَ أمـةً بحميـد رأيـه وجديـد خِبرتـه.

(١) الواقدي: المغازي، (٢/ ٤٤٥)، المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٧٧.

وحدةُ الصفِّ واتحادُ الهدف

كفى بالخندقِ ذاته بيانًا صادحًا بأنَّ الصحابة لم يكونوا ليَغفُلوا أو يُغفِلوا هدفَ عدوِّهم الأنكى والأعتى. وليس الاحتلالُ الروسي الفارسي لسورية اليوم ببعيدٍ عن ذاكم الهدف؛ فقريشٌ وحلفاؤها رغم اختلاف عقائدهم كانوا يستهدفون بوَحدة صفهم تحقيقَ مصالحهم وسحقَ كلِّ ما يهدِّد أطماعَهم، ولم يَعْدَم هذا العدوُ وسيلةً لبلوغ مرادِه؛ فحرَّضَ اليهودَ على الغدر، وحالف أحزابًا جمعتهم به المصلحة والكفر كغطفان وأسد، وآخَرين هدَّد الإسلامُ وجودَهم العقديَّ والقياديَّ والجغرافيَّ كيهودِ الجَلاء، وبثَّ العدوُّ أراجيفَه على ألسنةِ المنافقين ليشقَّ الصفَّ ويزلزل القلوب زلزالًا ليس كمثله امتحانٌ {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: ١١].

هذا علمًا أن اختلاف المشارب والمآرب في إدلب ليس بمانعٍ مِن اجتماع مَن فيها على بساط واحدٍ؛ فهو من وجهٍ اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، نعم يستثنى من هذا كلُّ ما يزلزل القطعياتِ كالقضايا التي تُلْبِس المتغيرات لبوس الثوابت؛ فمثلُ هذا الاختلافِ يدُكُّ قواعد الاتفاق دكًّا دكًّا، ليشق الصفوف ثم يُحِيل وَحْدتَها إلى شقاقٍ واقتتالٍ يقطع بأن مقاصد المختلفين بمنأى عن تحرِّي مقصد الشارع؛ ذلك أنَّ (الخلاف -الذي هو في الحقيقة خلاف- ناشئ عن الهوى المُضِلِّ لا عن تحري قصد الشارع...، وإذا صار الهوى بعض مقدمات الدليل لم يُنتج إلا ما فيه اتباع الهوى، فاتباع الهوى من حيث يُظَن أنه اتباع للشرع ضلالٌ في الشرع)[٢]. وإنكَ -والله- لترى في اتحاد عدوِّنا برهانًا قاطعًا على هوى دفينٍ لإخوةٍ متفقين على أسسٍ كلِّ شيءٍ، يفترقون ولا يتفقون على شيء وإن أوْدَى تنازعهم بهم إلى هرجٍ ومرجٍ وخسارةٍ لكلِّ شيءٍ!

إنَّ الثوابت والأواصر الرابطة بين فصائل الثورات أكثر من أضدادها وإنْ أوهنَتْها يومًا أهواءُ الدَّاعمين ورِهانُ المراهقة السياسيَّة وصِدامها أو عمالتُها وأنانيتُها، بل إنَّ ما يجمعُنا أقوى وأوثق من معاهدات حسن الجوار أو الدفاع أو المواطنة التي كانت تؤلِّف بين الصحابة وغير المسلمين من يهود المدينة وقبائل الجوار والحلفاء.

الخوفُ السَّائق والعائق

في مثل أيام إدلب والخندق تُحدِق بالناس كلُّ الظنون في حصارٍ ومسغبةٍ وكيدٍ وغدرٍ وحربٍ تآزر عليها معاهِدون ومنافقون من جيران ومواطنين {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} [الأحزاب: ١٠].

هذا الضربُ من الخوف غريزة مركوزةٌ في طباع الكائنات ضروريةٌ للمحافظة على البقاء، وعادةً ما تستثار على إيقاع مؤشراتٍ تؤذن بخطرٍ خارجيٍّ أو تعلُّقٍ بمجهولٍ مرغوبٍ فيه أو عنه.

وأمَّا الخوف العائق فهو الذي يولِّد الأمراض النفسية والعجز وارتقاب المصير، فذاك مرضٌ وبائيٌّ يتغذى بثلاثيةِ رُهاب الحرب النفسية:

أ- الشائعات وقيل وقال، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)} [الأحزاب: ١٢]. وغيرُ قليل منها أكاذيب تدسُّها جيوش الأحزاب الإلكترونية وتغدو مسلَّمات تتداولها ألسنة المضطهدين، وتحملهم على ما لا يتوقع ولا يحمد من سلوكيات وانعكاساتِ ردود الفعل.

ب- تثبيط المرجفين ومَعَاريضُهم ومعاذيرُهم، {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} [الأحزاب: ١٣]. والمرجفون في سورية ضروب شتَّى، والعجيب أنَّ منهم فصائل مقاتلة بعقلية مغلقة وأحلام خُلَّبيَّة صدَّت كثيرين عن السبيل، أو قل: إنها منحت القاعدين والمخلَّفين ذرائع يحاجُّون بها عن أنفسهم بحقٍّ أو بباطل.

ت- الخيانة ونقض العهود، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} [الأحزاب: ١٥]. وأيُّ عهدٍ أوثق من أن يقيم بين ظهراني المضطهدين في إدلب وغيرها قومٌ يتقون بهم مجاعةً وعبوديَّةً ووحشيةً أَسَدِيَّةً فتَّاكةً فإذا بهم وشاةٌ لمخابرات الاحتلال يُشيعون الفتن ويعيثون في الأرض فسادًا وتقتيلًا بما يتبرعون به للسفاحين من بيانات ومعلومات؟!

(٢) الشاطبي: الموافقات، (٥/ ٢٢٠).

المخابرات وحرب الأخبار

إنَّ عيون العدوِّ تفتك بالمستضعفين وتغزونا في عقر إدلب خاصَّةً وفي كل بقاع الأرضِ، فينبغي أن نقف على سرِّ الفتور وعواملِ القصور في إعداد جهاز مخابراتٍ خبير أمين لديه مَجْمَعُ معلوماتٍ سريةٍ لنأخذَ بفضلِهِ حِذْرَنا. لقد كان الفضل كل الفضل يوم الخندق وما قبلَه وبعده لخلايا استطلاعٍ تكتمُ إسلامها لتغزو بصمتٍ قريشًا واليهود والمنافقين، فهم مراسلو المدينة وعيونها: («من يأتينا بخبر القوم» فقال الزبير: أنا»)[٣]. وكذلك فعل حذيفة من قبلُ ففاز بالمرافقة: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع... أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟)[٤] وبعد أحدٍ (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: ائتنا بخبر القوم) ولمَّا (رجع قال: ما لي رأيتك منكسرًا؟ قال فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فرحًا بقفولهم إلى بلادهم، فقال: إن سعدًا لمجرِّب!)[٥] فأين سعدٌ هذا من بثِّ الرعب والإحباط واليأس والشك والرجم بالغيب أو النصر الموهوم والتقدُّم المزعوم وفتح الأندلس والقدس في إعلام ثوَّار وسائل التواصل الاجتماعي وقنوات السبق الإعلامي.

شدائد الأزمات ومَخارِجها

التأسِّي بالأفعال:

في شدةٍ كالخندق وإدلب يتقاسم الناس والقادة المغارم والمغانم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها)[٦] (وكان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل في مقامه بالرجيع سبعة أيام)[٧] فتأثير الطباع في الطباع لا تُخطئه عين؛ ذلك أنَّ (التأسِّي بالأفعال -بالنسبة إلى من يعظَّم في الناس- سرٌّ مبثوث في طباع البشر)[٨] فحريٌّ بالمرابط منَّا واللاجئ والمهاجرِ وفرسان السياسة والسيف والقلم والمال أن يكونوا جميعًا على قلب رجل واحدٍ في المواساة بتَبِعات هذه المأساة.

الأمن العامُّ والخاصُّ في الحربِ

سبقَت هجومَ الأحزابِ تدابيرُ احترازيةٌ من عدوانٍ محتمل على العرضِ والنَّسل، وقِوامها الشورى والتخطيط والمواساة والإيثار والتعاون، ومن أهمِّها في باب المقاصد تحصين الذَّراري والنساء في أحصن الحصون (فحين خرجوا إلى الخندق رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم)[٩] (وكانت صفية بنت عبد المطلب في فارعِ حصنِ حسان بن ثابت)[١٠] (وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبعث الحرس إلى المدينة لئلا يؤتَى الذراري والنساء على غِرَّة)[١١].

هلمَّ فحدِّثني يا صاحِ عمَّا قدَّمناه في إدلب ومخيمات الركبان والديرِ وغيرها لحرائر سورية وضعفائها من مقوِّمات الحياة والأمنِ سوى خيامٍ في العراء؛ تجتثها الرياح وتقتلعها السيول، وتنسفها طائرات المحتل نسفًا.

إنَّ هدفَنا معاقلُ جندِ الأحزاب ومرابض مقاتلاتهم، فكان حريًّا بنا أن نُقَيِّم تقييمًا شرعيًّا وعسكريًّا وحضاريًّا مسألةَ حروبِ المدن وعبثيةَ تحريرها شبرًا فشبرًا ثم التحصن بها والتترس

المفاوضات وخدعة المداولات

لما استبدت بالصحابة غاشيةُ الحصار تداوَل الرأي قائدهم وسراتهم بحثًا عن مخرجٍ من فالِقة حاقَّة، فكاد يقبل رأي فئةٍ منهم لِيَفُتَّ عضدَ اثنيْ عشر ألف محاصِرٍ ولتنفضَّ عنهم ببعضِ ثمار المدينةِ أشدُّ القبائل بأسًا وأكثرها عددًا؛ فيزول بذلك عن الصحابة الكرب وتقوى عزيمتهم على الثبات ومقاومة الحصار ومقارعة العدو بالرمي، (والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة)[١٢].

---

(٣) صحيح البخاري، (٤١١٣).
(٤) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٣١).
(٥) الواقدي: المغازي، ١/ ٢٩٩.
(٦) المصدر السابق، (٢/ ٤٦٤) (٢/ ٤٦٣).
(٧) المصدر نفسه، (٢/ ٦٤٧).
(٨) الشاطبي: الموافقات، (٥/ ٢٦٢).
(٩) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٢٦)، السيرة لابن كثير، (٣/ ٢٠٧)، الدلائل للبيهقي، (٣/ ٤٤٠).
(١٠) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(١١) الرحيق المختوم، ص٢٨٥.
(١٢) السيرة لابن هشام، (٢/ ٢٢٣).

إنَّ القصدَ إلى اختراق صفوف العدو وتمزيق وَحْدته لَهو لبابُ فقه هذه الواقعة وحكمتها، واليوم لدينا في تشكيلات أحرار سورية قوى سياسيةٌ واجتماعية ودينية قَمِينةٌ باختراق العدوِّ ونشر الذعر وفضِّ تكتلاته وتمزيق لحمة صفوفه وسداها والضغط والتضييق عليه ولو بقدرٍ ما من خلال الأحزاب السياسية المعارضة لحلفائه مثلًا، لا سيما أنَّه لا يجمع الاحتلال الشيوعي الشيعي وشبيحته سوى عدوِّهم المشترك (قال أبو سفيان: أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد)[١٣] وأمَّا عوامل تفرُّقهم فما أكثرَها!

إنَّ الجمودَ وتعطيل العقول والتعامي عن القوى المتاحة والبدائل الموفورة والمنظورة في مثلِ الخندق وإدلب مقتلةٌ، عظيمة خاصَّةً إذا كنَّا جميعًا وقلوبنا شتَّى وعدونا متحد، أو إن كنَّا قلَّة في العُدَّة والعدد؛ فإن التغرير عندئذٍ بفلذات أكبادنا وشموع حضارتنا ومستقبلنا جريمةٌ نكراء وجاهلية جهلاء، وهذا ما يفسِّرُ الضرورة الحاملة على وجوب البحث للعثور على وسائل بديلة عن مقارعة العدوان الغاشم وجهًا لوجهٍ كالخندق ورمي العدو بالسهام والنِّبال من وراء الخندق، وكالخدعة التي كُلِّف بها نعيم بن مسعود الغطفاني المنشق عن الأحزاب ليُسْلِمَ ثم يُؤْمر بإخفاء إسلامه والإيقاع بين الحلفاء[١٤]، وقد فعلها نعيم فنعمَّا ما فعل! لقد أشعل حربَ التخوين والشكوك بين يهود بني قريظة والأحزاب بخدعةِ الرهائن؛ فأوجس كلٌّ منهم في نفسه خيفةً من حليفه وتخاذلوا (قال أبو سفيان ورؤوس الأحزاب معه: هذا مكر من بني قريظة، فارتحِلوا)[١٥].

عِبَرٌ ورسائل مِنَ صحابةِ الخندق إلى أهل إدلب

لعلك تدرك أنَّ القوَّة الحاسمة للمعركة هي الفارق الوحيد بين أصحابِ الخندق وأهل إدلب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩] فهناك الريح المرسلة ومعها جنود ربَّانية لم ترَها العيون استنزلَتْها دعوات المضطرين على الأحزاب: (اللهم مُنزِل الكتاب، سريعَ الحساب، اهزِم الأحزابَ، اللهمَّ اهزِمْهُم وزلزِلْهُم)[١٦]. وعلة الفرق بين الفئتين ثلاثيةٌ أومأت إليها الآية التي شهدت للفئة الأولى كلِّها بها مجتمعةً، وهي «الإيمان والعمل والرقابة الإلهية» {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الأحزاب: ٩]، وبرهنَت على جوهرِ الفرقِ المذكورِ بين الخندق وإدلب وقائعُ الأحوالِ وشهودُ المواقفِ وشواهدُ الأحداثِ المثالية الدالَّة دلالةً قاطعةً على الرباعيةِ التالية:

١- صدقُ الصحابة في الاستمساك بمواثيق الأخوَّة والاتحاد والتعاون، ومساواةُ الراعي بالرعية وحرصه على أرواحهم بتخطيطه وفدائيته وعنايته بهم وبقراره الصائب المسدَّد.

٢- رسوخ قيمِ الإيثار والعطاء والأمانة والصبرِ والإقدام والفدائية والثبات الإيمانيِّ ورباطة الجأش رغم الحصار المُطبِق إثْرَ غدرِ بني قريظة ونقضِهم عهد الصحيفة وتطويقهم للمدينة من الجنوب حيثُ لا خندق.

٣- صلابةُ مبادئ الشورى والتنظيم والتخطيط والتنبؤ بالأحداث ليُعِدُّوا لها، والتعتيم الإعلامي وكتم الأسرار والاستخبارات والتجسس والتثبت من الأخبار والأحداث، والعمل الجماعيِّ والمسؤوليات والتَّبِعات وترتيب الأولويات والمقاصد الكلية الخمسة وأصول التفاوض والمناورات والإدارة الأمنيَّة الأمينة لسكانِ المدينة في حصنٍ لبني حارثة مع سد الثغور من جهات المدينة كلِّها بدوريات حراسةٍ عيونها ساهرة ترصد الأحزاب وتتربص بهم.

٤- عملُ كلِّ فردٍّ في الفريقِ بروحِ القائد وحسِّه إزاء المسؤوليات عملًا متقنًا محكمًا مستنفذًا للطاقات مستوفيًا للأسباب مستجمعًا للشروط والمكملات، واقتران هذا العملِ برقابته الربانيَّة مع الدعاءِ المستوفي لشروطه والتضرعِ والالتجاءِ إلى الله والتوكلِ عليه والاستعانةِ به، وقرنُه بالاستبشار بوعده تعالى للمؤمنين بالنصر، وملازمة العملِ للأمل والتفاؤلِ وانتظارِ الفرَج رغمَ ما حاق بهم في غزوة الأحزاب من شدائد وكرباتٍ وهمومٍ وغمومٍ ومكائد ودسائس هدَّدت الإسلامَ تهديدَ وجودٍ وبقاءٍ بهذا الذي خبَرْتَ وجب أن تكون غزوةُ الخندق مدرسةً إذْلِيَّة ومَلْجأً للمضطهدين في العالَم؛ فلقد كانت عاملًا أصيلًا في تحوُّل موقف المسلمين بعدئذٍ من الدفاع إلى الهجوم وتبليغ رسالة الله للعالمين.

(١٣) الواقدي: المغازي، ٢/ ٤٤٢.
(١٤) السيرة لابن هشام، ٢/ ٢٢٩.
(١٥) الواقدي: المغازي، (٢/ ٤٨٧).
(١٦) صحيح مسلم، (٣/ ١٣٦٣).

المجلس الإسلامي السوري

SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيد آخر شهد عام ٢٠١١ مبادرات لإيجاد كيان جامع موحِّد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان ٢٠١٤، ليعلنوا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قرارًا مشتركًا يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا .

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.

مقاربات

مجلة فصلية

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري

SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

info@sy-sic.com

www.sy-sic.com syrian_ic

syrianislamiccouncil